روايـــة

نثيرات الذاكرة

د. مصطفى عطية جمعة

نثيرات الذاكرة

د. مصطفى عطية جمعة

الرواية الحائزة على الجائزة الأولى في مسابقة سعاد الصباح الأدبية، العام ١٩٩٩

منشورات دار سعاد الصباح – الكويت
٢٠٠٠م

(الفيوم) في الثلاثينات والأربعينات

(١)

مطلع الثلاثينات : ميلادي ، فرحة أبوين ، ظلا يترقبان قدومي ، بعد انقطاع " الحبل " عن أمي ، بعد شقيقي الأكبر .

تقول أمي : " نصحتني " بخيتة " الداية ، أن أكف ، بعد الولد " هاشم " لأن ظهري لن يتحمل شدّة بطن ثانية .. " بحلقتْها عيوننا ، في جلستنا بغرفة الفرن ، نيرانه الخافتة ، وأمي تسكب الشاي ، أكواب مشبعة برائحة رماد حطب القطن الجاف .

تقول : " أعطتني " بخيتة " خلطة عشب . قالت : كلُها سنة أو سنتين ، وتبقين أسداً ،

لأنكِ يا ابنتي ضعيفة ... "

أجسادنا المتلاصقة ، الرشفات الحارة ، الدفء في مسامنا المتلاقية .

ازددتُ انزواءً جانبها.

كلماتها تطرق أذني ، منذ حبوي ، ومناغاتها الملحنة .

"طفتُ على الصالحين والأولياء ، و" هاشم " أخوكم أجرّه بطرف جلبابي ، يوزع معي الفول النابت والفتة ، .. يا الله يا كريم ...،

والدايات والحكماء ، حتى أكرمني ربنا ، بفضل دعاء أمي ، الله يرحمها .."

تحسستني : " ربنا رزقنا بك يا " وهبه " ، بعد تسع سنين ، كنت وهبة ربنا ، جئتَ ، مع البيت والدكان ....."

بيتنا المطل على " بحر يوسف " ، من الجنيهات التي راكمتها أمي سنوات ، حين كنا في بيت جدي الكبير ، حكتْ لنا عن سفر أبي أيامًا وأسابيع ، هناك في آخر بلاد الفلاحين

ومقاولات الشبابيك والأبواب التي كان يسهر عليها . " تزوجني وأنا في الثانية عشرة

ويعود آخر الأسبوع ، عرقه مرقه ، لا يسمع لدموعي من ضرب زوجة أخيه .."

" الآن هو معلم في الدكان ، أسفل البيت ، لايروح عن عيني "

* * * *

عظامي في أحضانها ، دومًا دافئة ، يدها في شعري الأكرّت ، واليد الأخرى تنفض أتربة جلبابي .

منذ يومكَ ، وأنتَ ضعيف . وسرحتْ بأحداقها البنية .

قالت : "كنتَ تبكي ليل نهار وعمركَ أربعة شهور .. "

أنكمش بين صدرها وبطنها .

" لا المجبراتي ، ولا حلاق الصحة ولا الطبيب عرف السبب .."

خوفي وتقوقعي .

" فتشتْ أمي ـ الست الطيبة ـ جسمك كله ، كانت إبرة مغروسة في فخذك .."

التقت أصابعها بيدي ، يتحسسان موضع الإبرة .

... أفلتُ منها لعيال الشارع .

* * * *

تحلقنا في غرفة الفرن ، برد الشتاء ، حواديتها عن السيد البدوي ،
يرفع عربات "الكارو"والناس على أكتافه ، آذاننا وعيوننا المبحلقة ،
نار الفرن المتوارية بين أقراص الجلّة
وعصيان الحطب ، تحشوهم بيدها أمي .
طرقات قبضة الباب الكبير الحديدية ، متتابعة متأناة ، بعثرة جلستنا ،
صرخاتها ورائي
على السلالم الحجرية .
– " أبي جاء .. أبي جاء .. أبي .. "
يُصفّر المزلاج ، أصابعي ضعيفة ، تصبب حبات العرق من جبهته ،
ينشّفه بطرف كُمِه ،
جوال مستقر على العتبة ، جررته ، رفعته ، لم يكن ثقيلاً .
" شوية .. شوية يابني ".
أدرتُه على ظهري ، تصاعدُ أرجلي تسابقُ جسدَ أبي السمين .
حلقتنا ثانيةً ، الهتاف : – " تين شوكي .."
حلَّة الماء الدافيء ، تضعها أمي جوارها ، أصابعها تقشّر التينة ، أصابعنا
تتعاركها ، كنت
بالكتمان أحكُ ظهري ؛ الشوك العالق بجلبابي .
تقول بايتسامة تبادلها أبي :
دائمًا أنت الغلبان فيهم .

(٢)

كُتّاب الشيخ " سعد " ، بمسجد" قايتباي " الأثري ، بابه الكبير وقد تساقطت زخارفه النحاسية ، لا نستطيع تحريكه ، عصا الشيخ الطويلة تهتز بيده بميكانيكية ، تحمل الوعيد ،

الفلقة مدلاة جانب السبورة ، حلقتنا وترديدنا الجماعي للسور ، تمايل الشيخ يمنة ويسرة ،

تتلونا حلقة البنات بنبراتهن الناعمة .

أنفرد بلوح " الإردواز " وريشة الكتابة ودواة الحبر ، أحفظ الوِرْد المقرر ، ثم حصة الحساب والعدّ على أصابع اليدين والقدمين ، تتخاتل العصا في ناظري حينما تتصلب عيناي مع مسألة الشيخ اللفظية المعتادة ، ضربتان على ذراعي ثم أقعد ، فتلاحقني نغزات العيال وهمساتهم الضاحكة ، أكره الضرب والقسمة .

تتسلل الشمس من فرشتها على الأرض ،بذراتها السابحة في الضياء الأبيض ، هاربة من الشباك العلوي ، متأرجحة من بين قطع المشربية ، دنو آذان الظهر ، يتململ الشيخ في قعدته ، مهمهمًا بكلمات نحفظها عن الوضوء والصلاة .

نتبارى في عقب الشيخ ، وهو يلج المسجد ، ومنه لميضة الوضوء ، ونحن للمة العيال بكرة " الجُلَّة " التي يخفيها أحدهم تحت جلبابه . تبدأ المباراة في حارة " بهنس " ، بعدما ننصب المرمى بقوالب طوب . عادة يكون موقعي حارسًا للمرمى أو أجمع الكرات من ورائه .

* * * *

نسرع لغسل العرق المتطاير من وجوهنا ، في ميضة المسجد ، أتسّحّب إلى البئر المهجور ، الحواف الصخرية الملساء ، تنتهي إلى فتحات الماء في العمق .

تقول جدتي : " زمان ، كان خادم الجامع ، يدلي الجردل ، فيمتليء بالماء ، والناس من حول البئر ، يتلقفونه و يتوضؤون "

وتردف : " ستي " ا لحبوبة : " كنت وأنا صبية ، أروح لأملأ منه ، كان يوفِّر أجرة السّقا"

الآن الماء الطيني في قاعه ؛ الفتحات لا تسّرب شيئًا .

سألتُ جدتي في قعدتها الشمسية ، فوق سطح بيتها ، و العروق القديمة تهنز تحت قفزاتي .

ماء البئر .. أين ؟

الماء يأتي من الله الكريم ، يعطيه لعبيده لما يحتاجونه ويدعونه ... إياك أن تقترب منه ،

البئر عميقة ، سقط فيها كثير ...

(٣)

هطول المطر ، ننحبس بالبيت ، يغلق أبي الدكان ، بعد أن يكّوم على عتبته كتل خشب .

نلتم في غرفة الفرن ، تلقي أمي قطع خشب الشجر التي كسّرها أبي ، في عين الفرن . لعل

أسنة النار المتراقصة ، تطرد البرد من شقوق عروق السقف ، ومن الأرضية المتربة التي اختزنته تحت ثنياتها . نتلذذ بالدفء في تلاصقنا .
هل فرّ البرد من عقب الباب ؟
أبي يعجن السمن والسكر والدقيق ، " العصيدة " ، يكورها ، وتلقيها أمي على بلاطة الفرن الملساء ، تنتفخ وتحمرّ ، تصفرّ أحداقنا ، وترتعش أجفاننا ثم ترتخي .
صياح أمي ، نغزات أبي بأجنابنا ، ننتبه ، نلتقف القطع البنية ، نبرِّدها بنفخاتنا قبل تلويها في بطوننا ، رائحة السمن البلدي تملأ أنوفنا .

* * * *

الصباح ، حياء الشمس بين الغيمات ، أراقبها من الشباك ، أقدام الثقيلة على السلالم ، مناداته للولد " عنتر " الصبي ، يسرع من بيته الملاصق لنا . تصطك ضلفتا الدكان .
ألقي كسرات الخبز في طبق الحليب ، ألتهمها .
تندرجٌ دماي على السلم ، الشيخ سعد قابع بالبيت ، كعادته أيام المطر ، يخشى من رذاذ الطين على جِبتِه وقفطانه .
سيارات الإنجليز الصفراء العالية في غدوها الراكض بشارعنا،وقد بان منها العساكر الشقر بالشورت والقميص الكاكي ، تُطيّر الطين ، فيتراكم في كتل وكثبان ، تعجنها أكفنا ، وتسرع ببناء أكواخ متساندة إلى سور " بحر يوسف " ، سوره الصخري الذي بناه السلطان قايتباي ، جانب جامعه ، بمئذنته القصيرة ، كأنها منحوتة من صخرة واحدة .

أكواخنا بارتفاعها الذي لا يتخطى النصف متر ، نقسّم غرفها وطوابقها بيننا ، ونجعل غرفة كبيرة للشيخ سعد " سنحبسه مع عصاته وفلقته فيها " .

مع زوال الشمس ، يجف طينها ، ثم يتشقق ، وقبل أن تسرع أرجلنا إلى البيوت ، مع مقدم الظلام ، تمتد أقدامنا إلى تحطيمها .

* * * *

أبي من جلسته أمام دكانه يناديني ، نفخاته في النارجيلة تتقاطع مع أوامره لصبيانه . يجاوره الأستاذ معوض ، المدرس بمدرسة السوق ، يطالعني بتأفف لبقع الطين الملتصقة بجلبابي ، أنظر لبدلته السوداء وطربوشه ذي الخيوط المتدلية من الخلف .

رحتَ الكُتّاب اليوم يا ولد ؟

أطرق رأسي لأسفل .

بسط الأستاذ جريدته نحوي ، اقتربتُ برأسي مترددًا ، شجعني أبي بابتسامة . قرأت بصوت عالٍ ، أعطاني مسألة جمع ، " سهلة ، لاضرب و لا قسمة " عددتُ على أصابعي خلف ظهري ، نطقت بخوف .

هاته المدرسة عندنا ، خذ بالك يا أبا هاشم أنها بمصاريف .

لا يهمك يا أستاذ ، المهم أن يكون أفنديًا .

(٤)

القميص الأبيض بياقته المنتصبة التي تجرّح قفاي ، وقد أمسكتْ أساوره برسغيّ ، وأدخلتُ أطراف القميص في البنطلون المحكوم حول وسطي ، وأحاط قماشه الصوفي بفخذيّ ، يشوّكني بخشونته . قدماي تعبأتْ في هذا الحذاء الأسود ، الذي أتمعّن في لمعان سواده أتحسس أرض الحواري بخطواتي ؛ حتى لا تنضح مسامي بالعرق ، فيتشبّع البنطلون به ، وتتكسر مدببات كيّه . أتيه بالجاكت ذي الأكتاف المحشوة كالخشب ، وبهذا الطربوش الذي كوّر رأسي داخله .

مدرسة " التوفيق " بمبناها الأصفر ، الذي كنتُ أطالع سوره الخلفي المطل على سوق الفراخ ، يوم الثلاثاء . كانت عيناي تتنقل بين جلبابي وبدلات الطلبة . أنا الآن معهم ،أسير متعلقًا بيد أبي بملمسها الخشن .

عبر السلالم الأسمنتية ، تدلف أقدامي إلى غرفة المدرسين . الأستاذ " معوض " ثانيةً ،

يدي في كفه الأملس ، ثم إلى طابور الأولاد . عيناي حملقت في النجمات الثلاث التي تزين العلم ، وارتبكتُ مع الهتاف العالي .

* * * *

الطبلية ولمبة الجاز ، وتحلّق إخوتي ، همسهم على كراساتي وأقلامي . أرفع صوتي بالمقروء في صفحات كتاب " المطالعة " الملونة . بينما أنفاسهم مكتومة .

قال أبي : كنت أريد أن يذهب هاشم للمدرسة ، لكنه جسمه ثقيل ، وياليته نافع في وقفته بالدكان معي .

* * * *

ليل الخميس ، نظرات عيال الحارة إليّ ؛ جلبابي نظيف . شعرتُ أني غريب بينهم . وجدتُ نفسي ضمن " العساكر " ، أركض وأدوخ وراء العيال " الحرامية " .

همس لي أحدهم :

– صرتَ أفنديًا يا " سي وهبه " . الشيخ " سعد " سأل عنك ، قلنا له : راح المدرسة مع أولاد الذوات والتجار .

* * * *

أوقفني المستر " روبين " ، مشيرًا بإصبعه الأبيض نحوي . كنت غارقًا في الهمس مع الولد " إسماعيل " الذي يجاورني . تحرك إصبعه ، فتحركتُ من مكمني في آخر طاولات الصف ، نحوه عند السبورة ، تتبعتُ عصاه في اهتزازاتها مع مفردات الإنجليزي .

أشار لي أن أقرأ . نطقتُ بتكسر ، استطعت إكمال الجملة ، ابتسم ، نطقت التي تليها ، أكملت الفقرة ، ابتسامته مع اتساع عينيه ورجفة رموشه الصفراء مثل خصلات شعره.

لماذا تتكلم مع زميلك ؟

اعتذرت بالإنجليزي .

* * * *

كنتُ في التاسعة ، عندما دخلتُ المدرسة ، السنوات تتابع ، أتنقل من سنة لأخرى ، فرحة أبي ، الشهادات تخلو من الدوائر الحمراء ، كما يبشّره " الأستاذ معوض " .

موقعي : فئة الطاولات الخلفية ، إسماعيل وأنا ، رأسانا المطأطيئان ، يتداخل صوت المدرس

وهمسنا . نبرع في التقاط آخر ما يقوله " الأفندي " حينما نواجه بإصبعه .

لازمتي وقت الامتحان : حركة يدي في جانبي رأسي ، تنكش شعري الأكرت ، تحاول فرد بعض خصلاته الملتوية ، بينما عيناي تلتقط ما يفيد من على بعد أو قرب .

* * * *

رابعة ابتدائي : عمري ثلاث عشرة .

الإملاء الأسبوعي ، الأستاذ " رشاد " ، طحن ما تبقى من إصبع الطباشير ، بعدما كتب العنوان بالخط الفارسي . عيوننا زائغة أثناء مروره بين الطاولات . نقلّب صفحات الكشاكيل ، الواجب ، براعتي في التقاط الأجوبة ، في الفسحة من كشاكيل الآخرين ، أغيّر أسلوبي ، أنمّقه ، مثلما أنمّق بنطالي وسترتي ، يختارني – أحيانًا _ لألقي بعض أجوبتي جهرًا.

كراسة الإملاء ، صوته الجهوري ، أختطف كلمات من لساني المحبوس بين فكيّ ، لأصبها في أذن إسماعيل ، يضحك دافئًا رأسه في شطر الكشكول المنتصب ، ويكتمها ببطنه .

يقول الأستاذ : " افتحْ قوسًا ، استراليا قارة جنوب المحيط الهاديء ، أَغلقْ القوس " .

بقية الفقرة ، تدافعنا بالكراسات ، تتراكم مفتوحة أمامه .

اسمي ، منغمًا مع إيقاع صوته الأجش ، أقترب بفرائصي المرتعدة ، عقيرته :

شوفوا العبقري : كتب " افتح قوس ، أغلق القوس " ...

الفصل ضحكٌ بقرقرة ، انزياح مقعده للخلف ،صفعاته على وجهي ورقبتي ، قدمه في مؤخرتي ، الضحكات .. أركض من باب الفصل .

* * * *

لن أروح المدرسة .

تمسح أمي دمعاتي ، تتحسس موضع احمرار أصابعه على خدي .

سأتعلم صنعة مثل هاشم .

عظمك طري ، لن تفلح في النجارة . قالها أبي بقرف ، وأردف : كان نفسي أشوفك أفنديًا ، لابس البدلة والطربوش . ستوفر الجنيهات التي أضعها من دمي كل سنة .

(٤)

ينفخ أبي دخان النارجيلة ، ناظرًا للاشيء ، عربات شركة " كافوري " الضخمة تمرق في الشارع ، القلل والقفف تعلوها ، والجلاليب الزرقاء المقلمة تبرز من نوافذها المحطمة . اليوم الثلاثاء ، نزلة الفلاحين إلى سوق البندر .

يناول أبي خرطوم النارجيلة إلى المعلم " زين العابدين " ، يقرّبها لشفتيه بآلية .

مالك ، يا أباهاشم ؟ !

الولد " وهبه " خيّب أملي ، لا نافع في المدرسة ، ولن ينفع في النجارة .

كنتُ أكنس الدكان ،و تتطاير نشارة الخشب على وجهي .

علّمه الخياطة .

.....

ارتختْ المقشة بيدي .

أكلم الأسطى " سيد الشريف " . شغلها خفيف ونظيف .

ممكن !

سيد الشريف ، صار يلبس البدلة ، ويقول للناس : " زبائني ليسوا أحسن مني "

(٥)

من الصباحية ، أنظّفُ الورشة ، وأجهّز الشاي للأسطى ، ثم أغدو إلى بيته ، لأشتري الخضار واللحمة والخبز .

الأسطى " سيّد "كلامه قليل ، طويل البال ، يتحمل خطئي مرات ، عندما " أسرّفل "

حواف البنطلون ، ثم تمتد يده إلى قفاي .

" لابد أن أسكت ، حتى لا أشَمّتَ فيّ عيال الحارة "

* * * *

شغلة حلوة ، كلها فن ، قاعد طول النهار في الظل ، بلا لف ولا سفر في بلاد الفلاحين .

تربتْ أمي على ظهري ، يبتسم أبي .

الأسطى طلب مني أن ألبس قميصًا وبنطلونًا ، أصبحتُ أفنديًا بدون ضرب أو مذاكرة

أليس عيبًا أن تشيل الخضار واللحمة لحرم الأسطى ؟

قالها هاشم .

الأسطى قال لي : سأعلمك الشغل على ماكينة الخياطة ، وسيحاسبني بالأسبوعية ،

و لايتبقى إلا ضربة المقص في القماش .

أكملتُ ، وأنا أمضغ نصيبي في اللحمة ، على طبلية الغذاء .

* * * *

لا أحد من عيال الحارة ، ليلة السبت أو نهار الأحد ، الورشة مغلقة ، أنام حتى الضحى رافعًا قدمي على شباك السرير الحديدي .

عيال الحارة توزعوا على الدكاكين ، وبعضهم سرح للعمل في الغيطان على أطراف البلد.

* * * *

تعلمت الجلوس على الماكينة ، الأسطى يرمي لي القماش المقطّع ، وأنا و " دسوقي " زميلي نكمل الباقي .

" البقشيش في جيبي ، والأسبوعية ليل السبت " ، " بعد سنتين من شيل اللحمة والخضار والضرب على القفا ، يناديني الولد " زكريا " الصبي : بالأسطى وهبه

* * * *

ضحى الأحد ، تغدو أختي حاملة صينية الفطور ، فتة الخبز الناشف باللبن ، أتربع على الفراش ، وألتهمه . دلفة أمي الفَرِحَة للغرفة :
قمْ يا بني ، وانزلْ تمشّى أو اقعد أمام دكان أبيك .
ساعدتني في إدخال كمي الجلباب في ذراعيّ ، وهي تتمتم بأدعية ضد الحسود والعين .
انكشف صدري ، الشعر طال به ، وقد اخضرّ شاربي وسوالفي ، يالشعيرات النابتة فيهما.
سحبتُ كرسيًا ، وأسندته لضلفة باب الدكان . رمقني هاشم .
لماذا أنتَ قاعد عندك ؟ خائف من نشارة الخشب ، أم تعودتَ يداك على القماش الطري .
نظرتُ له ، تشاغل برش الغراء السائل على لوح خشبي أمامه . قلتُ : إلحقْ ، نشارة الخشب التصقت على وجهك بالغراء ، صرتَ نجارًا بالصوت والصورة.
انتبه ليمسحها ، وضعتُ ساقي على الأخرى ، واختطفتُ خرطوم نارجيلة أبي ، نفختُ -كما يفعل أبي- بتؤدة وانسجام ، قرقر الماء داخلها ؛ كانت بلا تعميرة و معسّل .

التصقت رائحة بقايا المعسل بحلقي ، شعرت باحتراق . ضحكتُ وضحك هاشم واهتز كرشه ، من تحت جلبابه .

* * * *

مال " دسوقي " نحوي وأنا جالس على ماكينة الخياطة .

كيف قضيت نهار الأحد أمس ؟

في البيت ، جانب أمي .

الأحد القادم ، أنا داعيك إلى حاجة حلوة .

.....؟ رفعتُ عينيّ بالتساؤل . أردفت :

على قهوة الفقر التي تجلس عليها ، أم مصطبة العجائز التي يعتليها أبوك كل ليلة أمام بيتكم .

هز رأسه مصطنعًا الدهاء .

الأحد القادم ستعرف .

* * * *

عيوننا تبحلقُ في مقص الأسطى الذي يتلوى في القماش ، صوته المشابه للمنشار ، يذكرّني بنعيق السواقي من عمق بحر يوسف ، والمتناثرة في الغيطان المتاخمة لحيّنا .

متمهلاً ، يرسم الأسطى سيد بالمارك الطباشيري على القماش ، ممعنًا في السكوت ، لم تتحرك جفونه لأعلى من وراء نظارته نحونا .

مشهد ترقبنا لأجرة الأسبوع ، نحفظه بلوازمه : الصمت والجفون المرتخية ، ورائحة سندويشات الفول بالزيت الحار ، والفلفل المشطِطْ .

قطع القماش المقصوصة ، شغل يوم الإثنين ، تراكمت على ماكيناتنا ، المقص يعود لسكونه جانب الطاولة ، المحفظة ، النقود الورقية لنا والفضية للصبي .

ناصية الشارع ، عربة الفوال ، قضماتي النافخة لحرارة السندويش .

سأمر عليك غدأ العصرية ، ... . " الحاجة الحلوة ".

تقافز إخوتي حولي ، وزعت عليهم المليمات والنِكلات .

* * * *

يده على كتفي ، كان طويلاً ، بجسم ممتليء ، نسير محاذين للسور الحجري للبحر ، متوغلين لميدان " قارون " ، والسواقي السبع التي تتوسطه . لوكاندة " قارون " بشرفاتها الحديدية ونوافذها الطويلة ، عرجنا لعربات اللب والحمص والترمس ، دسوقي لا يكف عن الكلام ، وقزقزة اللب ونفخ القشر .

سنذهب للسينما .

سينما الشوشاني ، تجاور قهوته ، أمامها شريط السكة الحديدية ، المتجه لـ " القاهرة " .

رحتها من قبل ؟

نفيت بهزة رأسي .

* * * *

الشاشة الفضية ، تطاول ارتفاع بيتنا ، أشخاص مثلنا ، تتكلم وتقفز ، نساء بيضاوات ، بدلات من قماش فخم .

هذه هي البدل " الإسموكن ". همس دسوقي .

توهجت سيجارة في فمه بالظلام ، رائحتها تعبقني .

خذ نفسين .

أبي حذرني منها .

الجوزة بنت عمها .

أعقاب السجائر تتطاير علينا بضوئها الناري .

انتبه ، حتى لا يطولك أحدها ، فتشتعل بجانبي . سينما الترسو والحرامية .

لا تصدق الحب ، فقط القبلات هي الحقيقية .

ترددَ إصبعاي وهما يحتويان السيجارة . سعال ، الدخان لا أعرف مخرجه .

خذه على صدرك بقوة .

إظلام الشاشة ، الصفير المتناثر ، ثم ....

الفيلم الأجنبي ... حاجة ثانية .

قلت : – المرة القادمة الدعوة عليّ .

شهم من يومك . أبي أخذ الأسبوعية كلها أمس ، هذا من البقشيش .

* * * *

الوجوه الشقراء في الفيلم ، تخالف تلك التي أراها ترتدي الشورت والقميص ، ولكنهم أيضًا يطاردون هؤلاء الرعاة ، بندقية واحدة تجعل المئات من الرجال الحُمر منقلبين على بعضهم ، ثم يهرب صاحبها ، ليتحصّن وراء سور من جذوع الشجر .

أين ستذهب ؟

قلت : – الحمام .

هناك على اليمين .

الأرضية طينية ، السباب ورائحة السجائر ، الحنفيات موحلة ، المجاري عائمة . التأفف .

أخذت مكاني متلويًا . ضحك دسوقي .

لا تزال ناعمًا .

"كُنيف " بيتنا جنة .

* * * *

أيام الآحاد ، مقاعد الترسو ، نفخاتي الطويلة للسيجارة على صدري ، كلامنا عن المحل والأفلام . ، فرارنا من عربة الشرطة حين تسد بظهرها باب السينما ، ويلتقط المخبرون النشالين . قد يشتبهون فينا . نتسلق الجدار الخلفي ، ومنه للسطوح المجاورة ، مثل أفلام أمريكا .

(٦)

زهقتُ من أبي ، والفقر . قال دسوقي .

أنت تساعده ، إخوتك كثيرون .

سأسافر " مصر " .

مصر !

خليني أشوف الدنيا .

والشغل والمحل .... من أين ستنفق ؟

معي صنعتي ، أبواب الرزق كثيرة ، سأنزل على الأسطى " فريد " ، من بلدنا وحبيبي ، سمعت أنه فتح محل ، وتعدلت أوضاعه ، والله ما كان يعرف يقص ولو رجل بنطلون .

تماثل الفراغ مكانه على الماكينة ، وفي السينما ، وعند الفوال .

* * * *

قعدتي النهارية أمام دكان أبي ، عيناي مركزة على السور الحجري للبحر ، اسودّتْ أحجاره لتركم طين الشارع عليه ، " لو استمر هكذا ، سيصبح السور جبلاً " .

قرقرة أبي في النارجيلة ، متتابعة رتيبة ، نظارته بين السماء و باب " الوداع " على الضفة الأخرى للبحر ، حيث تتزاحم المقابر .

" الحياة بين ضفتين ، أولد هنا وأدفن هناك ، هكذا ببساطة يكون نكدنا وفرحنا هو الفراغ بينهما "

كنتُ أرفض صحبة أمي في زيارتها لأبويها كل أربعاء ، هل تؤدي واجبًا ؟، وهي تطرق بآلية جوار قبر أمها . أتململ لمرور السويعات ، والآيات تتوالى من المقريء .

دقات شاكوش " هاشم " مع اهتزاز كرشه ورأسه ، وقلمه قابع خلف أذنيه ، نفس وقفة واهتزازة أبي وجسمه أيضًا ، صباحهما مثل مسائهما ، أمسهما كغدهما بعد سنوات ، يحلم هاشم بالعروسة وبالغرفتين اللتين خلف الدكان .

تحسستُ سجائري ، أبي يقول :

تعالَ خذ نفسين من النارجيلة أرحم من أعواد الدخان التي ستهدمك .

عمّقتُ دخاني إلى حواف رئتيّ ، وكان الزفير طويلاً ، اختلطتْ سحبه بدقات الشاكوش وقرقرة النارجيلة ، وباب الوداع .

* * * *

تضاعف الشغل ، وحدي على الماكينة ، وعلى دِكة " الترسو " ، سيجارة بفمي وأخرى وراء أذني ، النظرات بيني وبين الأسطى في وقفته خلف طاولة التفصيل .

سأزيد أسبوعيتك .

تمتمت بالشكر . الآلية في أصابعي على القماش وفي حركة قدمي على القاعدة الحديدية .

(٧)

أسابيع وشهور .

كيف حالك يا سينما ؟

اندفعتُ لأحضانه ، يلبس بدلة جديدة ، بكولونيا فائحة . رفع الأسطى " سيّد " جفنيه بتراخ ، بانتْ حدقتاه الغائمتان ، مد يده بابتسامة صافية ، ثم أدار مقصه ثانية .

رشف من زجاجة " الكولا " :

بقشيش يوم هناك بأسبوعية هنا .

مرتاح ومبسوط في مصر ؟

الحال عالٍ ... أليس كذلك يا أبا مُحَمَّد ؟ أنت كنتَ تعمل هناك .

لم يرفع الأسطى " سيد " رأسه عن القماش والمقص .

لا تفرق كثيرًا . كلها عيشة ، أكل وشرب وعيال .

كانت ليلة السبت ، استأذنتُ لتوصيل دسوقي . تأمل الحواري والبيوت المتساندة .

الشوارع في " مصر " مسفلتة ، والبيوت عمارات عالية ..

والشغل ، مع الأسطى فريد أيضًا ؟

اشتغلت معه " شوية "، ثم رحتُ لأتيليه - يعني ورشة - في وسط البلد .

لماذا ؟

هناك عالم آخر ، فريد ،دكانه في طرف القاهرة ، ألا تعرف مستواه في الصنعة ؟

عيون الباعة على كرافتته الحمراء ، وسترته الزرقاء . استرسل :
جئت لأرى أبي وإخوتي ، كنت مقصر معهم في الفترة الفائتة .
حدقتُ في الطين المتراكم على جنبات الشارع .
موعدنا غدًا العصرية ، سأمر عليك .
تقلبت في الفراش ، لم يسكن جسمي إلا مع شقشقة الصبح .

* * * *

السينما هناك مختلفة .
السينما فيلم وشاشة وكرسي .
وفيه التكييف .
.....؟
في البرد تجد السينما دافئة ، وفي الحر كأن الهواء يمر من تحت لوح ثلج .
كنا قد وصلنا لسينما " الشوشاني " ، انسللت لشباك التذاكر ، ومنه لبائع اللب .
قزقز ونفخ ، ومدد رجليه إلى مؤخرة المقعد الذي أمامنا .
أحسن شيء هنا ، أن تأكل وترمي على آخر ذراعك ، لا أحد يقول لك عيب أو بطّلْ يا متخلف . سمعتها مرات كثيرة في سينما " مترو " .
ضحكتُ .
فضحتنا هناك أمام الأجانب .
بعيد عنك ، الطبع غلاب .
كلمني عن سينما..... التي ذكرتها من " شوية ".

يا بني ، المقاعد محشوة إسفنج ، عمال المحلات هناك يدخلونها للنوم تحت المكيّف وقت الظهر .

هرش في شعره وقفاه :

لا يزال البق والبراغيث تحت الكراسي . ما أخبار عربة البوليس ؟

غرقتُ في الفيلم ، و الشوارع الواسعة ، والعربات المكشوفة ،وحفلات القصور الفخمة ، التفاف البنات حول أنور وجدي ، وجهه ناعم وشعره لامع .

* * * *

أفلتنا من الزحام وأيدينا على جيوبنا ، ونحن نتسلق الحائط الخلفي .

ابحث لي عن شيء معك ، بصراحة أنا زهقتُ من هنا .

ربنا يسّهل .

هل سأنتظرك ستة أو سبعة أشهر ؟ !

لن أطيل بعد ذلك . وسأحاول .

تقلبتُ في نومتي ، الأسفلت اللامع ، والعمارات ...و ..... كانت الشمس خفيفة كأن نسماتها مكيفة . استيقظتُ على لسعتها . زفرتُ ، لم أذهب للدكان .

(٨)

ولد يا وهبه .

أهلاً ... أهـ ..

جهّز نفسك ، فُرِجتْ .

معقول !

هل أنا قليل هناك ؟ التفاصيل سأقولها على غذاء ببيتكم ، كوارع من يد أمك .

انساب القماش متعرجًا تحت وخز إبرة الماكينة ، تمنيتُ ألا يحدث .

الخوف . الأسطى

" سيّد " ، يقلّب أوراق النقود ، يعدّ الفضيات بروتينية للصبي . تلاقت أعيننا .

مبروك . دسوقي جاءك .

الحقيقة يا أسطى .....

أصلها لفة لابد أن تلفها . خذ حظك من الغربة ومن مصر .

* * * *

تلوّتْ اللحمة جانب فمه ، مصَّ عظمة الكارع ، امتدتْ أصعابه لقرن فلفل أحمر مخلل .

سألته : – النظام والشغل ...كيف ؟

مستعجل أنت . عمومًا باختصار ، وبعد الغذاء الحلو ، ستعمل معي في نفس الورشة، وسط البلد ، لن تلف ، ولن تبدأ من الأطراف مثلي .

أنت تقول الشغل صعب ، ومحتاج فن .

وأنت أستاذ في الصنعة ، وخبرة من سنين طويلة ، كم سنة صار لك فيها ؟

حوالي سبع .

كلام في سرك ، أنت أمك داعية لك ، كان فيه صنيعي ، لكن راح بلده وغاب عدة أيام ، انتهزتها فرصة ، ومدحتُ فيك عند الأسطى فوافق .

المهم ألا تتركني على عماي هناك .

هات طبق الملوخية من أمامك . أنا قلت المفيد .

* * * *

دموع أمي ، أختاي الساهمتان ، تعبآن الحقيبة التي اشتريتها في الصباح . همست أمي :

لففتُ لك بطة محمرة ، مع بقية الأكل .

صوت دسوقي . يناديني من أمام البيت ، أقسم أخي على حمل الشنطة حتى المحطة .

الطريق ، الصمت ، كلام دسوقي الكثير .

تذكرة القطار الكرتونية الصفراء ، عانقت هاشم على الرصيف ،أدخل الحقيبة من النافذة الصفارة العالية ، الدخان الأسود من مقدمته .

ما لك يا سي وهبه ؟ ستبكي ...

نفخ دخان سيجارته ، المزارع على الجانبين ، القطار القشاش ، القفف والبلاليص حولنا .

قطار يقف لمن يشير له .

نظر لي :

شِمْ المش ورائحة الفراخ .

ضحكتُ متصنِّعا القرقعة .

(القاهرة) .... في الخمسينات

(١)

العمارات بزخارفها المدببة ، وجوه النساء الشقراوات ، من ثنايا الشرفات والنوافذ ،

الفترينات الكبيرة ، انعكاس بدلتي على زجاجها ، ونحن نطوف عليها في رواحنا الليلي .

شارع فؤاد : أتيليه الأسطى " حلمي " ، شقة بالدور الثاني من عمارة " السلطان " ، طرقتها الطويلة بين الشقق ، قعدة البواب النوبي في أول المدخل الممتد لعمق العمارة ، تفحصه في الواجين والخارجين ، تمتماته بالنوبية ، تشبه الخربطة الزنجية .

الأسطى " حلمي " : سيجارة مدلاة من ركن فمه ،وسحب دخانه المتصاعدة تخفي نظارته السميكة ، التي تظهر عينين متورمتي الأجفان . مقصه بحركته الثعبانية في أقمشة الصوف الإنجليزي الأصلي ، بملمسها الشائك .

الزبائن من أجانب وشوام ومصريين ، يحتلون المقاعد الجلدية في ردهة الشقة ، تكسُّر الحروف العربية على ألسنتهم .

أهمس لدسوقي ، وأنا أطالعهم من وراء الماكينة ، بغرفة الخياطة :

رائحتهم حلوة .

وبدل فخمة .

مصر هرشت عقلك .

كنت مدفونًا في الفيوم .

سيد الشريف كان يقول : الشغل واحد . صنعتنا لا تعرف إلا الانثناء على القماش .

فيه شغل برائحة حلوة ، وآخر برائحة عطنة .

* * * *

ليلة السبت ، ثلاثة جنيهات الأسبوعية ، دسوقي منفرد بالبقشيش والعمال . ينظر لي :

موعدنا باكر . تمرّ عليّ .

* * * *

شارع الأزهر ، سكني : الغرفة السحرية في بيت أم فتحية ، وجدتُ دسوقي يعيش في رواق للصعايدة ، لا مكان لي ، أو لافرجة بينهم .

قال :

أنت لن تريد إلا مكان للنوم فقط .

أحب الراحة . غربة وقرف .

أكلك وسهرتك معانا في الورشة . صحيح غرفة ضيقة ، لكن تحتوي مرتبتك ولحافك و "سحارة " الملابس .

والحمام ؟

في الدور الثاني . أصل الولية صاحبة البيت أجرت البيت كله عائلات ، أنت العازب الوحيد .

كنا في وكالة البلح لشراء السحارة واللحاف وخشب السرير .

الغرفة بخمسين قرشًا . قالت أم فتحية ، وهي تخطو بنا تحت السلم .

غالية . غمز لها دسوقي .

بها كنبة وطبلية ، يعني مفروشة .

وهبه حبيبي ، ملاك ورجل شهم .

* * * *

رواق الصعايدة ، العمائم البيضاء في ازدحامها على الأكل . أشار دسوقي لي.

كيف تنام ، وهم يتعاركون طوال الليل ؟

المكان بخمسة عشر قرشًا ، هل أفرّط فيه ؟

بخيل ، وأنت في مصر .

أنا تعلمت أن القرش يساوي الكثير . أريد دكانًا وزواجًا .

بعد ما علقتني بالعزوبية ، تريد أن تخلع .

حرّك إصبعه :

انظر للمبنى هذا .

كأني شفته كثير .

على الورق ، صورته على الخمسة والعشرة جنيهات . البنك المركزي .

هنا تشوف الأشياء التي تسمع عنها ، وتشوفها في الجرائد ، بل وتشوف مباني الجرائد .

أين ؟

في شارع الصحافة .

المباني الأجنبية العتيقة ، الأجانب الشقر ، الخدم السودانيين ، خلية نحل بالألوان.

سينما " مترو " ، لافتتها البارزة ، المقاعد الجلدية المنتصبة القاعدة ، نبسطها في قعدتنا .

تعرض أفلام الشركة في نفس وقتها بأمريكا ، أمامه شهور حتى يصل للبلد .

و المكيفّ ؟

سيعمل .

همس ذوي الياقات البيضاء مع زوجاتهم ، ابتسامات دافئة . غرقت في هذا .

* * * *

البكور ، سباب أم فتحية لابنتها ، انحدرت أتربة على رأسي ، لاهتزاز العروق تحت سمنة فتحية . أسرع ، الحمام ، زحام السكان .

شارع الأزهر ، عربات الفول والفطائر ، العمال والموظفون بطرابيشهم ، حركة الأفواه الآلية ، دفء البيوت القديمة في تساندها . الحبال مدلاة بالأسبتة ، مكاني جنب عربة عبد السميع الفوال ، أغمغم لشطة الفلفل .

* * * *

يرش الصبي الماء في الطرقة الممتدة ، وينشره على أرض الصالة ، أعتلي الماكينة ، أكداس القماش ، ألقاها الأسطى ليلاً ، الشاي أمامي ، صوت دسوقي الصاخب ، حكايته عن البنت التي بدأ يعشقها .

أنا حبي من غير فلوس ، لمن تريد .

عشيق فقري .

خسرتُ الكثير ، على من قبلها .

* * * *

جريدة " البعكوكة " أغرق بصفحاتها وكريكاتيراتها ، وقت الظهيرة ، باب الأتيليه مغلق من الداخل ، تمدد الأسطى على كنبة أنتريه الصالة .
أضحك مع الزجل وبيرم التونسي ،
و شخير دسوقي المتقطع .

* * * *

أوبتي للبلد ، سويعات السبت الليلية ، ونهار الأحد للعصرية ، كل أسابيع ، أتململ من الفراغ والتكرار .
أوزّع القروش والشلنات على أخوتي ، أهادي أبناء هاشم وزوجته ، بعدة كيلوات فاكهة ، ملأ الغرفتين اللتين وراء الدكان .
قلتُ له :
اخرجْ من البيت ، وابحث عن شقة أو بيت .
أنا قاعد في حضن أبي وأمي .
عيالك كثروا .
أنت في مصر ، والبنات سيتزوجن ، ولابد أنني سأصعد للدور الثاني .
أعود محملاً بالفراخ المحمرة ، وبلاص العسل الأسود وصفيحة الجبن القديم ، تزاحم القفف بالقطار .

* * * *

روايات شرلوك هولمز ، أرسين لوبين ، أجاثا كريستي . ثم إحسان عبد القدوس ومحمود البدوي ، أترقب الظهيرة لألتهمها ، ونهار الأحد لأغدو لسور الأزبكية .

(٢)

معقول .... مجدي !

وحشني يابن خالتي .

وقف سادًا الباب بطوله .

– أخذت العنوان من خالتي ، أمك ... أردف :

أنا ألّف عليك من صباحية ربنا ، مصر حلوة ، عرفت السبب لقوعدك هنا .

تركتَ أبيك ؟ !

زهقت من تصليح الصرم ، وضرب أبي .

مشينا ثلاثتنا ، اشتريتُ فطائر . التففنا حولها في الغرفة السحرية .

شوفوا لي أي شغلانة .

ضحك دسوقي :

لن تجد محل لتصليح صرم الفلاحين .

أنا كرهت الصنعة كلها ، أريد أن أشتغل معكم .

تقابلُ عينيّ بعيني دسوقي ، قلت :

من أسطى لصبي ، على طولك يا مجدي .

ليست مشكلة ، المهم خلوني جانبكم هنا .

* * * *

دسوقي يهمس للأسطى حلمي ، هز رأسه نفيًا . أقبل نحوي :
رفض ، وقال أريد رجلاً متعلمًا للصنعة .
نبحث له عن أي صنعة ثانية .

* * * *

طنطنة مجدي بالليل ، يشكو من ركنته طول النهار ، وتسكعه بالشوارع .

زهقت ، ولا أريد الرجوع للبلد ؛ الشباب سيضحك عليّ .
طوّلْ بالك ، ربك يفرجها .
الولية أم فتحية تظن أنني أعاكس ابنتها ، هل فيها شيء للمعاكسة ؟
هيّا نتعشّى .
أنا طبختُ أرزًا ، و طبق كوسة ، استلفتُ حلة ووابور من فتحية .
ضحكتُ ، رد بسرعة :
أمعائي جفت من أكل السوق .

* * * *

رخّات المطر على النافذة وأرض الشرفة ، تتابعها على الأسفلت بالشارع .
المطر له ساعتان لم يتوقف . قلتُ لدسوقي .
لو نزلت تلك الكمية في الفيوم ، لعامت الشوارع ، وركب الناس المراكب .
المطر خير ، أمي كانت تزغرد لما تشوف الغيم ، كانت تقول الأرض لن تحتاج

لسقي اليوم وباكر .

أمك ست طيبة .

نزلتُ لشراء الغذاء ، كان عمال المحلات ينزحون برك الشوارع بمقشاتهم ، إلى صفايات

المطر ، على الجانبين . الأسفلت المغسول اللامع ، يجف تدريجيًا ، تحت أشعة العصاري .

* * * *

شقشقة النور ، ضربات على الباب ، صوت دسوقي ، انتفضتُ مع " مجدي " ، للباب:

خير ، يا مزعج .

ألقى بنفسه على السرير ، ومدد رجليه :

أريد طبق فول بالزيت الحار ، وطعمية سخنة .

همستُ : – لابد أن هناك مصلحة لنا ، نظامك في الحياة " شيّلني وأشيّلك " .

رد وهو يتثاءب :

الحساب هذه المرة على مجدي .

قفز مجدي :

وجدتَ لي شغلة .

أول مرة أكتشف ذكاءك .

فار الشاي على النار ، استدرتُ من قعدتي الأرضية نحوه ، أفرغتُه بالأكواب . قال دسوقي وفتات الفلافل تتطاير ناحية " مجدي " :

صاحبي فريد ، أنت تعرفه يا وهبه ، قابلته وسألته عن شغل لابن بلدنا ، الذي لايعرف في الصنعة شيئًا ...

صمتَ للزوم التشويق ، كنا متوقفين عن تلويك الطعام ، صُحْنا :

هيه ..هيه ..

هات ماء .. قال لي : إنه يحتاج إلى رجل يحشو البدل .

التفت إلى " مجدي " :

ستحشو الأكتاف بالقطن وخلافه ، لا تحتاج لنباهة ، وتعلم أنت الباقي ، بالمناسبة دكانه في روض الفرج ، بعيد عنك من هنا .

أردف ، وهويرشف الشاي :

– قم رُحْ من الآن معي ، وسأتأخر عن المحل ساعة .

* * * *

الأسابيع والشهور ، يتحرك القلم بيدي ، خواطر وقصص ، مثل التي أقرأها ، كثر سرحاني ، الفن حلو ، تداعبني الشهرة ، والسينما والأفيشات الملونة .

همست لدسوقي ، وأنا واقف أضبط كُم السترة بالمكواة :

حلمي أن أكون كاتبًا كبيرًا ، وأكتب سيناريوهات أفلام .

فكّرْ في دكان أو في زوجة و عيال ، ألم تزهق من العزوبية ؟

ألا تعرف أحدًا يشغلّني في السينما ؟

تشتغل ماذا ؟ !

– في ملابس الممثلين ، وعن طريقها سيعرفونني .

هز رأسه بنفي واستغراب .

* * * *

مرّ " مجدي " علينا بالمحل . ابتسمنا . كانت بقايا الخيوط على قميصه ، سألته :

كيف الحال في الشغلة الجديدة ؟

حتى الآن لم أفهم شيئًا ، سوى قص وتقطيع بدل الجيش ، المهم ، وجدت سكنًا جانب المحل ، بصراحة المشوار بعيد عليّ .

معك المفتاح ، أشوفك يوم الأحد .

طالعته وهو يغيب بسترته الضيقة على ظهره الممتليء . الوحشة بنفسي . الغرفة بدون همهماته ، وصفيره الليلي . ابتسمت ، ضغطتُ على رجل الماكينة ، فكرّ الخيط متقطعًا بالقماش .

(٣)

عربات الجيش في ناصية الشارع ، همس العمال ، عن البيان الذي أذاعه الراديو ، بصوت أنور السادات ، قال الأسطى حلمي وهو ينظر لجريدة المصري بيدي .

الضباط الأحرار ؟! من هم وأين كانوا من الحرائق التي شبتْ في شارع عماد الدين من أيام ؟

البلد تغلي ، ربنا يستر .

السياسة كلها هرج ، منذ وعيي على الدنيا ، لم أجد واحدًا ثابتًا على كرسيه إلا الملك ، والمندوب الإنجليزي.

البيان كلامه جميل .

الحياة تساوي طعام وشغل وكرامة .

التفاف الناس حول الجرائد . قلق وجوه الأجانب . كلامهم المكسّر الخائف .

قال دسوقي :

حضرتُ خطبة الجمعة عند الشيخ الباقوري . كلامه شيء آخر ، سأظل وراءه كل جمعة .

قلت متعجبًا :

متى وكيف ؟ ونحن مع بعضنا .

سمعت عنه من الأسطى " زكي " ، وذهبت معه ، أنت مشغول بكتبك دائمًا .

(٤)

عند أوبتي المعتادة للبلد ، نقصت أسبوعيتي هذه المرة . قال الأسطى حلمي :

السوق نائم ، والزبائن خفيفة في الصيف .

ابتسم بحرج ، قال :

الأجانب بدأوا في تعبئة الشنط . يظهر أن الضباط الجدد ضدهم .

زفر وهمس :

وأخشى أن يكون ضدنا نحن أيضًا .

كلام الجرائد مختلف وجديد .

أنا من شيبتي وعمري هنا ، زهقتُ من الشعارات .

* * * *

قال دسوقي ونحن في القطار :

الأسطى قال لي : خذوا أجازة براحتكم . يعني أنه سيكتفي بالصنيعي الذي لديه .

الضيق والفراغ في نفسي .

* * * *

لم تصدق أمي وأنا أطوي ليل الأحد لديها . فتحتُ عينيّ على صراخ المعلم " زين العابدين " في الناس وخرافهم وحميرهم المتجمعة أمام بيته ، يسب الصنعة والصنيعي .

كان يقول دومًا :

رزقي عند جلد الحيوان ، أنتظر طلوع الشعر فيه .

و يرد عليه أبي :

احمدِ الله ، ما هو أنت حلاق مثل الحلاقين .

ينفخ الهواء :

أنا قصاص حمير وغنم . الحلاق يتفنن في الرأس التي تحته ، وعلى الأقل فيها عقل ولسان ، أما أنا فأخطط الجلد بمقصي ، على ألحان النهيق . والحمد لله .

يعلّق أبي بعدما ينصرف المعلم " زين .." :

طيب ولسانه طويل ، ومع ذلك الرزق في رجليه . يسب الناس ويلعن آباءهم ، ويتركون إخوانه من حوله ، ويأتون إليه .

أسأل أبي :

رغم أنك تعبت ولففتَ الأرياف ، وما فعلته في الدنيا قليل : البيت والدكان وتربيتنا.

ربت على كتفي ، وأنا ملتصق به في قعدته أمام الدكان :

يا بني ، إن رزقي هو هذا فقط ، اجرِ جري الوحوش ، عن رزقك ما تحوش ،

يا ليت تفهم الدنيا .

هززتُ رأسي بتعجب :

الدنيا : ١ + ١ = ٢ .

الأيام والعمر أمامك ، همتك ونشوف .

تحركتُ من السرير ، الطبلية ، الفول بالسمن البلدي ، يد أمي الحانية ، ضحكات أختي الصغيرة المتصنعة ، وهي تأتي بالفلفل المخزون .

* * * *

قال دسوقي ، ونحن في طريق بحر يوسف الذي يقسم بلدنا :

تعالَ نشوف رزقنا ، نسلّم على معلمنا القديم .

لا مكان لنا هنا .

الصنيعي الشاطر مطلوب .

عرجنا على الأسطى " سيّد " ، الابتسامة الصافية ، الشاي ، قعدنا أمام الدكان ، تتخايل بذهني سنوات الشغل لديه ، ثم سنوات القاهرة ، قلّ اللحم بأكتافه ، تهدل صدغاه ، سمكتْ نظاراته ، انطفأ حزمه .

حديث العجائز عن العيال وزواج البنات والمصاريف والصحة .

استمعنا ، أظهرنا التأثر .

همستُ لدسوقي ، ونحن في رجوعنا :

المحل فاضي ، وأرجل الزبائن خفيفة ، صبي واحد لديه .

الترزية الشباب كثروا .

تعرف أحدًا منهم ؟

واحدًا أو اثنين . مصر أنستنا البلد والصنعة هنا .

* * * *

جلساتي أمام الدكان مع أبي ، أنفخ دخان النارجيلة . الحوار مع أخي ، يشتغل ساعة ويجلس جانبنا ، له جوزة خاصة به . استدار جسده ووجهه ، تتطابق مع شكل أبي

الزمن والسكري أحنيا ظهر أبي ، تمتماته متكسرة ، يغفو في جلسته .

* * * *

مررتُ على دسوقي في بيتهم ، ناديتُ ، صوت أمه في قعدتها بالشرفة :
أهلاً يا أسطى وهبه . دسوقي راح يلعب كرة مع الشباب .
رجلاي صـوب " شونة " تخزين الغلال ، الساحة التي أمامها ، موضع تجميع الغلة وشحنها. صياحهم وسط اللعب ، جلست على حجر أشاهد ، أشار لمّا رآني . لم ألعب منذ الطفولة ، أطرافي تميل للارتخاء ، هل أحببت القراءة لهذا ؟
أقبل ، العرق المتطاير ، أنفاسه متلاحقة :
مباراة جميلة .
أنا مسافر غدًا .
لماذا ؟
زهقتُ من البلد .
لا موضع لي ولامكان .
اقرأ ، فرصة بدلاً من ساعة الظهر النار ، في ورشة مصر .
كتبي في مصر ، والبيت ضيق هنا ، عيال هاشم كثير . هل ستأتي معي ؟
نعم ، لأن فلوسي خلصتْ . لكن السوق خفيف في الأتيليه هناك و....
وهل ثقيل هنا ؟
على رأيك ، أنا كنت أنتظر أي فرصة هنا ، لكن المحلات مليانة . الرزق يحتاج لسعي ، الفلوس التي معي لا تفتح محل ..، ولا تتمم زواج .

* * * *

الغرفة السحرية ، الكتب المتراكمة في الكراتين ، حوافها متآكلة بفعل الفئران ، زغردت أم فتحية ؛ إيجار شهرين متأخر ، ابتسمتُ بحرج لها : إن شاء الله تفرج .

ولا يهمك ، أنت رجل طيب ، وجيرتك حلوة ..

ابنتها خلفها تصطنع الابتسامة لي .. تضايقت .

* * * *

رحّب الأسطى حلمي بنا، لم أرد الذهاب له لولا إلحاح دسوقي .

كيف الحال والبلد والأهل ؟

هذه حاجة على قدر ما قُسِم ..

أشار للزكيبة والقفص اللذان حملهما معه ، كنا نحضر له الهدايا ، مرة من كل واحد . تمتمات الشكر منه .

مكانكم محفوظ ، لكن في النهار فقط ..

أحنينا رأسينا بالموافقة ، " أحسن من القعدة واللاشيء " . شعرت بالراحة .

* * * *

الروايات والكتب ، من العصرية إلى الليل ، قصص عن الحواري والمدرسة والزبائن .

أنام على أحداثها ، وأحلم بها ، وأستيقظ عليها . الشهرة ، الكاتب الخياط المعجزة .

حملتها إلى شارع الصحافة ، النسخ الكربونية لكل جريدة .. أنتظر النشر ، وخطابات الجمهور .

الصفحات الفارغة من اسمي . ذهابي إلى " الأخبار " ، خناقتي مع الحارس ، رفض صعودي للبحث عنه .

أنا أديب .. أين ..؟

ليس موجودًا .

متى يكون ..؟

في الصباح ، العاشرة أو ما بعدها .

" العمل ، الأسطى .. ، موهبتي ...أحلامي "

* * * *

صباح الأحد ، كنتُ ماكثًا جانب الحارس ، سيجارة وسندويشات له .

قال ونحن نتضاحك :

هذا هو الأستاذ رائد .

لدى اقترابه ، ابتسمتُ :

أنا وهبه عبد الله ..

أهلاً ..

نطقها بطريقة عادية .

لي قصص عندك لم تنشرها .

الاستغراب في وجهه ، نصعد معًا ، مكاتب الصحفيين ، رنات الهواتف .. ، المجلات والجرائد المتناثرة ، مكتبه وأكداس من الورق والكتب .

قلّب أمامه ، أخرج قصصي

خفق قلبي ، عيونه جامدة ، يطالعها مع رشفات القهوة . عبارات ترحيب ..

أتكلم بصراحة ، دون عنتريات الأدباء الشبان منك ..

الخجل ، التردد ، الإيماءة لأسفل .

هذه خواطر ، أفكار ومواقف متناثرة ، ليست قصة متكاملة .

والحل ؟

ليست مشكلة ، القراءة و ..

تأمل وجهي المتغير :

ماذا تعمل ؟

ترزي في شارع فؤاد .

العزم ، أنت في البداية ، حاول تدرس ..

" سهر الليالي ، التعب ، ساعات البحلقة في الكتب .... "

* * * * *

الجريدة ، المقهى ، عيوني الزائغة في أسطرها ، الفشل ، " هل يحقد على موهبتي ؟ "

" يظهر الصدق عليه ..." .

عودتي الليلية ، مفتاحي في الباب الخارجي للبيت ، الأزيز ، لم أسمع لصوت أم فتحية من عمق الظلام وهي تصرخ في القادم . شعرتُ بأنفاس ، اعتيادي الظلمة . جسد فتحية

، أنفاسها متسارعة :

العـ شاء .. . جـ اهـ ز .

الحروف متكسرة ، القرف ، تمتمت بكلمات متناثرة ، صككتُ باب غرفتي . حلمتُ بها.

* * * *

عندك مكان فاضي لي .

استفهم دسوقي بعينيه .

أبحث عن سكن .

والسبب .....؟

قرفتُ .

الرواق على آخره .

سأذهب لمجدي .

* * * *

العصر ، عربة "كارو " ، بقية الإيجار في يد أم فتحية ، أخذته باستفهام ، الصمت ، أنقل الفراش واللحاف وكراتين الكتب ، مجدي يساعدني ، مشينا وراء العربة إلى روض الفرج.

* * * *

هذه ليستْ غرفة . ... كوم زبالة .

ضحكات مجدي البلهاء .

هل تريدني أن أنظّف أيضًا ؟

أمسكتُ مقشتي ، لم تكن عنده واحدة ، الغبار وأوراق الفلافل وعلب السجائر .

معفّن .

كان منشغلاً بالطبيخ . قال :

أنت مسئول النظافة ، وأنا الأكل ..

" العرض جيد ، أرحم من أكل السوق ".

(٥)

إنهم يعلقون لوحات جديدة على الشوارع .

قال الصبي ، وهو يكنس الأتيليه .

غيّروا اسم شارعنا ؟ قلتُ :

إلى شارع ٢٣ يوليو .

اسم الثورة .

قال الأسطى حلمي :

وبعدها ستجد أسماء الضباط أنفسهم على الميادين .

قلت : – إنهم صادقون . التغيير له ضروراته .

لماذا انقلب صاحبنا على " مُحَمَّد نجيب " ؟

لأنه المحرّك الأساسي للثورة .

نعم ، والصحيح أن " نجيب "كان يريد الحرية ، والجيش يرجع لكتائبه في الصحراء

أهم شيء : طرد الملك .

الأهم الشعب ، والتعليم والحرية .

* * * *

الأحد ، دسوقي ممدد على السرير ،كعادته منذ انتقالي ، الغذاء على مجدي دائمًا :

مشوار يا وهبه عليك ، حتى تصل للدكان .

أركب مواصلة .

تكاليف .

الإيجار بالنصف بيني وبين مجدي ، أدفع ريالاً فقط في الشهر .

مجدي أنت أستاذ في الطبيخ ، لكن مكانك في نيجيريا .

رماه مجدي ببرتقالة ، قائلاً :

أنت مثل القطط ، تأكل وتنكر .

هيا إلى السينما .

* * * *

شارع " مُحَمَّد فريد " " عماد الدين سابقًا " ، اللافتات الزرقاء التي توزعت على أماكن في أول ومنتصف و آخر جدران الشارع ، القباب العالية التي تعتلي البنايات القديمة، رؤوس التماثيل المجمدة ، تحمل الملامح الرومانية : شعر مفلفل ، و وعيون تنطق بالجنون والعظمة ، السواد يعلو رخام التماثيل ، " يبدو أنه يبكي على خروج الأجانب من مصر" ، كلام مجدي المتتابع :

الحمد لله ، شربتُ الصنعة الآن .

أي صنعة هذه ؟ حشو البدل . قلت .

يضحك ، وهو يقزقز اللب ويدخن :

– الأسطى فريد أستاذ في " الأونطة " يحشو صدر البدلة من قماش بدل الجيش

الممزقة ، بفن ، بحيث أن الزبون يضرب على صدره يجده خشبا وحشوًا .

دسوقي : وما دورك في الموضوع كله ؟

أنا الذي أختار القماش من بدل الجيش .

فقط . قلناها بصوت واحد .

وأقعد على الماكينة شوية ، وأسرفل شوية ... والحكاية ماشية .

سألتُه : – أي زبائن لديكم ؟

أفندية طبعًا . ولكن من الذين يمشون لتزيين الجنازات ، وأصحاب البدل بالتقسيط ،وبعض الحرامية المحترمين .

دسوقي : – والله هذه الصنعة لها مستقبل ، تمشي مع كل الطبقات الاجتماعية ، كما يقول إخواننا رجال الثورة .

قلتُ : – أما نحن ـ في عرف الثورة ـ ترزية الخواجات الخونة ،و الإقطاعيين المتسلطين ،

وبقية الساسة المتعفنين .

دسوقي : – فاكر الوزراء والممثلين خاصة عماد حمدي وزكي رستم .. لذا الاسطى حلمي كره الثورة برجالها .

لهم حسنات .

مجدي : – يقولون إنهم يبنون كل يومين ثلاث مدارس ..كيف ؟

رددتُ عليه : – بمصادرة بيوت الأغنياء .

دسوقي : – هذه البيوت من بقايا القصورالتي لا يريدها الضباط .

السياسة واحدة .

كررتُ : – لهم حسنات والله ، لكن المؤامرة الدولية أكبر منهم . والكل يشهد أنه أول حاكم أحبه الشعب لأنه من الشعب ، لا من تركيا .

دسوقي : – الأسطى حلمي قال مرة : لا يصلح أن يكون هناك حصان واحد في السباق.

قلتُ : – الأسطى حلمي حضر سعد باشا ويعشق النحاس والشيخ البنا وكان عضوًا في الوفد في شبابه .

كنا قد وصلنا السينما . قلتُ :

هذه الحفلة تعيد فيلم " الفتوة " ... شفناه من قبل .

قالوا : – خلينا في الفيلم الأجنبي . جديد على الأقل .

(٦)

أمسكتُ القلم ، شهر على فراقه ، قصة بئر جامع قايتباي ، ألعاب الطفولة حوله ، العمق الفارغ ، ختمتها بزجل عن الشوق والصلاة .

* * * *

تطلع لي الأستاذ رائد :

أنت طيب ومجتهد . ولكن قصتك مقال طويل بالعربية ، ثم زجل بالعامي .

غيظي ، " لن أكتب بعد ذلك .."

حاول أن تشكلها بالدراما والمواقف والحوار .

" سأتزوج ، وأفتح دكانًا في البلد .."

والقراءة ... القراءة ، ابحث عن مدرسة ليلية .

" أكره الواعظ و الحِكَم ...."

قام واقفًا ، مد يده .

" ينهي المقابلة ..... ، هكذا لا تُقدر المواهب "

* * * *

قصة أخرى ،و السهر في السحر ، تمْلَمَلُ مجدي في رقاده وشخيره ، قصة بنت الجيران ، شكل فتحية يلحّ عليّ ، الغرام في العتمة ،تتداخل رواية " زقاق المدق " لنجيب محفوظ

، النهاية بالأولاد والسعادة .

" الحوار والمواقف ، في عشر أوراق ، بدلاً من هذه القصص الأقزام التي في المجلات "

* * * *

استقبال الأستاذ رائد المعتاد .

أحسست بغضبك على وجهك ، قبل .

الخجل .

هل من جديد ؟

مددت أوراقي .

طويلة .

عشر صفحات .

قدِّمْها في الندوة الأدبية .

أين ؟

في نقابة الصحفيين ، مساء الثلاثاء ، واتركها لي ، سأقرأها .

* * * *

خطبة الشيخ الغزالي رائعة اليوم .

قال دسوقي ، وهو ينظر في الكتاب الذي أطالعه . قلت :

تركتَ الشيخ الباقوري ؟

مرة هنا ، ومرة هنا ، كلامهما مختلف عن شيوخ الفتة وموظفين الأوقاف .

قلتُ مجاملاً :

الشيخ متولي في " الزاوية " التي تجاورنا ، يختصر كلامه ويتحين الفرصة ليجلس ، ثم يتحينها ، ليدعو ثم أقمْ الصلاة .

ولو سألته ، يقول الناس مشغولة .

أنا فعلاً مشغول .

وأين الآخرة من مشاغلك ؟

* * * *

" معقول ! دسوقي الذي لا يركعها ، يصلي ، حتى الفجر ، وبوادر للحيته ...."

* * * *

قلتُ له وأنا أضع الأسبوعية في المحفظة :

موعدنا العصر ، فيلم لفريد الأطرش .

لا ترتبط بي . قالها بحزم .

.....؟ استفهمت بعينيّ .

مناظر عارية ، و غناء ورقص وقبلات .

عجيبة هذه ! عندما امتنعت عن التدخين ، ظننته توفيرًا ، ولكنك الآن.....

سأذهب إلى لقاء ديني بعد المغرب .

* * * *

تراقص مجدي مع أنغام الفيلم ، همست له :

دسوقي تغيّر !

شعرتُ بهذا .

والسبب ؟

الشيوخ الذي يسمعهم ، ومرة قال لي إنه راح لشعبة الإخوان .

أهلاً ..!

لم تعد للسينما طعمًا ، كأني بمفردي ، شعوري عندما سافر دسوقي ، زتركني بدكان الأسطى سيد الشريف .

* * * *

نقابة الصحافيين ، دائرة الأدباء ، التقطيبات ، والابتسامات للفتيات . الشاعر الحالم يغتصب دمعاته ، ليبكي الحاضرين ، التصفيق . من هذا الذي يتقعّر ويعقّب ؟

ينظرون له بتقدير . كنتُ عائمًا . قصتي والخوف ، يشير لي الأستاذ رائد يقدمني واحد منهم .

صفحاتي الطويلة ، أتعثر في النطق ، أندفع ، أواصل ، تَسْلُسُ القراءة ، تدربتُ عليها ليلة البارحة ، الآذان المطرقة ، تتناقص الصفحات ، تنتهي . تصفيق متناثر ، اثنتين أو ثلاثة،

الرجل المتقعّر ، كلماته :

أنتَ مبتديء ، العالم يعيش مشكلات الفقر والجهل ، ويكافح نير الاحتلال الامبريالي ، وأنت تكتب عن معشوقتك بنت الجيران ، بأسلوب ركيك .

الأستاذ رائد :

له محاولات من قبل ، هذه أجودها .

يرد عليه المتقعر بابتسامة :

–هل كان يكتب عن المشكلة الجنسية في مراهقته ؟

كدتُ أن أقوم لضربه ، لولا العيون المشفقة نحوي .

* * * *

" الطريق للشهرة هو الدراسة ، أذاكر للحصول على كلية الآداب ، ثم الدكتوراه كعميد أدبنا ، هل أترك الخياطة ؟ "

* * * *

في القطار للبلد ، دسوقي هاديء صامت ، " أين سبابه ودخانه ؟ " ، مجدي يقرقر ،

كنتُ مشتاقًا لأبي. قال دسوقي :

– ألم تزهقواُ من التسكع في السينمات ؟

مجدي : كيف وأنت معلمنا ؟

قلت : تغيرت .... لماذا ؟

فهمت الدنيا .

ماذا فهمت ؟

لماذا أنت وهو تعيشان في مصر ؟ تأكلان وتشربان وتنامان ، ماذا حققنا بعد سنين في " مصر " ؟ سينما ومعاكسة نساء .

مجدي : مخك انقلب ..

يقاطعه : أنت لا تفكر إلا في بطنك ، والبنات اللاتي يشبهنك ..

رجعنا للسان الطويل ...

ضحكنا ، قلت :

ما هدفك يا عم الشيخ ؟

اعمل لدنياك... ، واعمل لآخرتك ..

يعني ، ماذا ؟

أنا أفكّر في العودة للبلد ، و في محل وزواج .

* * * *

صوت دسوقي من أسفل البيت ، نهار الأحد .

اعتذرْ للأسطى حلمي عني ، سأعمل هنا .

هنا ! أين ؟

سأشتري ماكينة وأقعد في بيتنا ، كنت عامل جمعية ، سأقبضها .

بيتكم !

حتى أجد محلاً . كفاية من فسق مصر .

(٧)

الندوة : أمسك شاب بقصته ، يلقيها ، العيون والألسن المتأهبة ، تحكي عن فتاة وجِدّتها ،

فقر وعشة فوق السطوح ، البنت صغيرة والجدة مريضة بالسعال ذي الدماء . همستُ

" السل " . كانا يجاوران فيلا لأغنياء . في البكور ، تهرع الفتاة لصندوق القمامة أمام الفيلا تبحث فيه عن بقايا الخبز ، والخضار والفاكهة . تغسلهم ، ثم تأكله مع جدتها .

بكاء الفتيات حولنا ، همهمات الحاضرين : " حتمية الحل ..... لكل فقير "

أبلغ الزبّال أصحاب الفيلا بوجود فئران أوقطط ترعى في القمامة ، لأنه يجدها مقلوبة في الشارع ، وقد تدخل للفيلا .

وضعتْ الأسرة الغنية سُمًا في القمامة . تجمع الشارع في اليوم الثاني على صرخات بعض الأطفال الذين يلعبون فوق السطح ؛ بوجود جثتين في العشة .

تصفيق ، أصوات :

هذا نموذج لما ستواجهه الثورة ، قصة رائعة .

لا سبيل إلا بالقضاء على الإقطاع .

هكذا تستباح ثروة الوطن البشرية .

قلتُ بتردد :

ولكن المثل الشعبي يقول : " لا أحد ينام من غير عشاء " . حكاية غير معقولة ، والسم لهذه الدرجة لم تتعرفه البنت ، رغم أن القطة تحسه ..

ردود : – من السوء أن المبتدئين يتكلمون .

ما شهاداتك ؟

قلتُ : – ميدان الأدب للجميع .

نعم ، ولكن الشهادة برهان على المستوى الثقافي والفكري .

قلتُ : – لاشيء . قراءاتي .

عليك أن تبدأ من الابتدائية . قبل أن تفتي في القضايا الكونية .

* * * *

في الطريق : الشوارع كابية ، الإحساس بالضعة . ستقف الشهادة أمامي .

كيف أبدأ وأنا في الثامنة والعشرين ؟

في القاهرة ، وأنا ما زلت أجيرًا لدى صاحب المحل ، شهر شغل على فترتين ، وآخر فترة واحدة ، ومع الصيف ، عطلة إجبارية طويلة .

* * * *

سفرة الفيوم التالية :

" بنطلون الشباب " مكتوبة في مدخل البيت ، بخطه المتقطع . دسوقي منحنيًا على الماكينة في غرفة البدروم ، طاولة عريضة للقص في الركن . الأحضان بيننا ، نزلتْ دمعة مني . همستُ :

كيف الأحوال والشغل والرزق ؟

عالٍ ... عالٍ .

معقول ؟

الصبر ، واللسان الحلو ، والصنعة أيضًا ، الزبون لا يملكه أسطى أبدًا ، الصنعة واليد العفيفة فقط تأتي به أو تبعده .

صمتَ ، وهو يناولني زجاجة " كوكا كولا " أحضرها شقيقه الصغير . قال دسوقي مشيرًا نحوه :

هذا هو الصبي هنا .

أردف ، وأنا أجول في بياض الغرفة المقشّر :

– الديك يا وهبه كان في يوم كتكوت . ابتسمتُ . " مقولة الأسطى حلمي لنا دائمًا "

كيف أحوال الأتيليه في المحروسة ؟

أنت تعرف الإجابة . لكن الأسطى حلمي أشعر أنه انكسر .

زبائنه رحلوا .

* * * *

قالت أمي :

لماذا لا ترجع ؟ ..... مثل دسوقي .

قالتها ثم نظرتْ لأبي ، همس :

آن الأوان .

التجاعيد تتراكم بوجهه . كتفاه فارغان من اللحم .

* * * *

لم يقمْ من وراء ماكينته . قال :

أنت صاحب مكان هنا يا وهبه ، ليس هناك تكليف بيننا .

جئتُ لأسلم عليك .

سآخذ دكانًا في شارع " الرمل " .

.....؟

أنت أول سامع بهذا الخبر بعد أمي .

مبارك عليك .

مكانك محفوظ معي .

كلام بجد أم مجاملة و " جدعنة " منك ؟ قلت بضحك .

أبدًا . الشغل شغل .. أنا محتاج واحد شَرِبَ صنعة ومقص " مصر " .

* * * *

الأتيليه بلا طعم .

لم يبقَ سواي والصبي والأسطى حلمي . عاد " زكي " لقريته في دمياط .

الأسبوعية ناقصة . تغافل الأسطى استفهامي .

* * * *

سأعود . قلتها وأنا " أسرفل " بلا إرادية .

تطلع نحوي الأسطى ، كان ساهمًا . وجدتُ نفسي ترددها . هتف :

– سلم لي على الأسطى دسوقي ، يا أسطى وهبه .

(الفيوم) ..... في الستينيات

(١)

غدوي الصباحي إلى شارع " الرمل " ، يأتيني صوت إذاعة القرآن من داخل المحل عاليًا . دسوقي في انكبابه على طاولة القص . أول مَنْ يفتح دكانه في الشارع . ابتسامتنا ، السندويتشاوت يحضرها الصبي أمامي ، الشاي ونفخات السيجارة .

– كفاك سهر وقراءة . قال دسوقي .

الكتب دنيا ثانية .

ماذا فعلتَ في المعهد الليلي ؟

لا جديد ، منتظر رأي مدير المنطقة التعليمية .

روتين .

الموافقة معتادة ، هذه من حسنات الثورة ، وناصر .

لم نقلْ شيئًا ، فيه أشياء أخرى ..

وضع طبيعي ، هناك الثورة المضادة ...

كفى .. كفى ... نكمل فيما بعد .

أدرتُ الماكينة ، الجلسة المكرورة من سنوات ، كأن فخذيّ خُلِقا من أجلها . امتدتْ أصابعي إلى مؤشر الإذاعات .

صوت دسوقي :

دعنا نأخذ بعض البركة من القرآن .

هذه المحطة من حسنات العهد .....

أعرف والله ....

* * * *

التفافنا حول طبلية الغذاء ، أمي وأبي وأختي المطلقة ، في الحجرتين اللتين وراء الدكان . احتل هاشم الدور الثاني .

"سيريحنا من عياله وقفزهم " قالها أبي .

وقفتُ معترضًا مع أختي – ساعتها– التي قالت :

سيسيطر على البيت ، ثم .....

أسكتتها أمي بنغزة في جانبها .

انزوى أبي ساعتها ، الصمت دائمًا عندما يكون السن هو الحكم في الأمور .

لقماته القليلة بيده المعروقة ، ابتسامات أمي ، يبادلها بضحك كاشفٍ عن بقايا أسنانه .

التواد في الشيخوخة . حرّكَ نفسه متسندًا على الكنبة ، ثم مستويًا عليها . تنهض أمي مسرعة إلى الجوزة التي أدخلها إلى البيت ، تقوده إلى مقعده بالدهليز . يتمتم أن تكمل طعامها ، تتجاهل كلماته بأدعيتها .

" الاستمتاع بالإيقاع المتراتب بينهما ، والحديث المعتاد عن الحارة والموتى .... "

ترفع أختي الطبلية ، بعدما وضعتْ قطعة لحم في خبز ، وناولتها لابنها .

رفع نحوي ناظره ، عندما جلستُ على درج السلم الحجرية جانبه .

مرتاح في البلد يا بني ؟

الحال ماشي .

الفلوس قليلة ...؟

المهم أني بجواركم .

* * * *

أذهب لدار الكتب ، هناك على الأطراف أمام ترعة بحر يوسف . الشارع الفسيح ، والأشجار على الجانبين ، عبق مصر الجديدة وفيلات الحلمية في أنفي .

الموعد الأحد ، تلمسي للمجلدات ، " لو يتركوني هنا ..."

أغرق في أحدها ، ثم استعارة كتابين في آخر اليوم . أنزل للشارع ، أرخي جسدي جالسًا على سور البحر . النظر في اللاشيء ، مثل أبي .

* * * *

قلتُ لدسوقي :

سأعمل في النهار فقط .

.....؟ عيناه إليّ .

الفرحة مني :

لقد وافقوا ، سألتحق بمعهد شفيق الليلي .

مبروك .

أنا الآن في السنة السادسة الابتدائية على نظامهم الجديد .

كيف أدخلوك في الشهادة الابتدائية على الفور ؟

اختبروني ، وأحضرتُ لهم شهادة بالسنوات التي درستها ..

طريقك أخضر ...

* * * *

المعهد المسائي :

فصول في مدرسة " التوفيق " الابتدائية ، محشور في درج صغير ، " لو كنتُ أكملتُ ....أو ضربني أبي وأنا صغير .."

الضوء الأصفر من المصباح اليتيم ، آذاني المتفتحة .

* * * *

سمعت أن الولد " مجدي " أجّر محلاً في القاهرة .

قلتُ لدسوقي . كان منكبًا على بطانة سترة ، يحاول تركيبها .

المشكلة في هذا الزبون أنه سمين جدًا ويريد أن يتأنق ..

قال أخوه (الصبي) :

وبخيل أيضًا . أنظّف له ظهره وأحضر له الشاي ، دون أية فوائد .

دسوقي : – هل تحلم أن تنال من أسفله شيئًا ، إنه من الطبقة الجديدة التي تفتخر بالوظيفة والبدلة وهم يفصّلون بدلاتهم بالقسط الشهري .

كنّا نتكلم في مجدي . قلتُ مؤكِّدًا .

آخر مرة زرته فيها هناك ، وأنا أشتري الماكينة الثانية ، كان يقول أنه يريد أن يعمل في وظيفة حكومية .

وظيفة ! والمحل .....

أنت تعرف مجدي ، خفيف في الصنعة ... ، ثم أنه تعب بعدما اختلف مع الأسطى

" فريد " ... الوظيفة ستنفعه .

كم سيأخذ منها ؟ خمسة أو ستة جنيهات .

أمـان ، اشـتغلت أم لم تشـتغل ستحصـل علـيهم . والسـوق الآن لـيس مضمونًا .

قلتُ وأنا أزفر :

بالفعـل ، هـذا الزبـون لا يصـلح معـه إلا الجلبـاب البلـدي ، صـارت لي ساعة أحاول تركيب الجيب في المقعدة ، ولم أعرف كيف أضبطه ..

قال لي : إن شرط وظيفته أن يلبس بدلة .

لمـاذا لا تختـار زبائنـك ؟ الوقـت الـذي ضـاع في بدلتـه يسـاوي ثـلاث بدلات .

الرزق ....

صمت بيننا ، ثم أردف :

لماذا لا تلتحق بوظيفة حكومية يا وهبه ؟

ربطة والتزام بلا فائدة . ثم لماذا لا تدخل أنت ؟

أتكلّـم جـديًا .. أنا صـاحب محـل ،ممنـوع علـيّ إلا إذا أغلقتـه ، ولا أعرف سوى معلومات " الكُتّاب " أما أنت فمتعلم .

أفكر ، لكن ...

يا بني ! فرصة البلد مفتوحة الآن على آخرها للوظائف ، اشتراكية ... مرتبها كم ؟

المرتـب ثانيـةً ، أنـتَ تأتيـني في العاشـرة صـباحًا ، نفـس الوقـت الـذي ستخلع منه من الوظيفة ..

* * * *

الليل بين القراءة ، والقلم المتردد في يدي . أعيش مسرحية في نفسي . تأبى أصابعي .

(٢)

امتحان الشهادة الابتدائية ، ثمانون بالمئة مجموعي .

لم أصدق ؛ أول شهادة آخذها ، ناولت فراش المعهد ورقة بخمسة قروش .

* * * *

البيبسي في المحل . قال دسوقي :

مستقبلك في العلم ، إن شاء الله تكون عملاق الأدب العربي .

أضحك ، لسانه زالف .

قلتُ :

بكفاحي ..

هذا عنوان كتاب " هتلر " .

لدينا الأستاذ " حسونة " زبون محترم ... مارأيك ؟

في ماذا ؟

يعمل في مصلحة المساحة ، وحكى مرة أنهم يُعيّنون قياسين للأرض ..

هل يقبل أن ...؟

أنت معك شهادة . سأكلمه .

* * * *

أفنديًا سأكون ، حلم أبي منذ صغري . قلتُ له في جلسته بالدهليز :

سأسعى للوظيفة ، ستراني أفنديًا .

رقة ابتسامته ، عيناه الغائمة بسوادها الباهت .

أنتَ لا تصلح إلا لها .

عاد لجوزته ، دخانه يتطاير ويتلاشى .

– فقط ؟ ! تضايقت .

– السوق والشارع يحتاجان لصاحب بالٍ واحد ، لا لصاحب الكتاب (٣)

صرخات – كنتُ ساهرًا في غرفتي فوق السطح – من أمي ، وأختي ... السلالم الحجرية ، هاشم وامرأته ..

ـ أبي ....

بكاؤنا ... ، الشارع المتجمع ..

مسجى على الكنبة ، الاطمئنان في تجاعيده ، و السنون والرضا بالمقسوم .

" لم أشعر به في شيخوخته ، كالطيف في حياتنا ..."

الغُسل : ملابسه تنزع ، خوفي ، الأطراف المتصلبة ، قشعريرة البرد ..بكائي . أخرجوني من الغرفة ...

تعلقُنا في النعش ، الصلاة في جامع " قايتباي " ، النعش يتحرّك فوق الجسر ، إلى باب الوداع " المقابر " التي تقابل بيتنا ، على ضفة " بحر يوسف " الأخرى .

" هل كان يترقبه ... وهو ينظر في اللاشيء .."

" هل كان ينظر أمامه لباب الوداع أم للاشيء .."

* * * *

الفراغ على الكنبة ، والدهليز ... " حاضرٌ رغمًا عن جسده " .

(٤)

تكلمتُ مع الأستاذ حسونة .

قال دسوقي ، رفعتُ رأسي ؛ اهتمامي ... ثم إردافه :

الرجل رحّبَ كثيرًا ، خاصة أن معك الابتدائية .

ماذا سأعمل ؟

قيّاس للأرض ، وقال لي : إنها لاتحتاج لفن ولا مهارة ، بعض العاملين معهم بلا شهادة .

معقول !

" عالم جديد ..سأدخل ".قلتُ ساهمًا :

– البلد ستتحول إلى جيش موظفين وكتبة وسعاة .

والله أمان .

مرْ عليه غدًا في المصلحة ، في منشية " لطف الله " .

* * * *

قصر " أنيسة هانم " سابقًا ، المكاتب المُسوَدة بفعل السنين . سألت عنه ، أشاروا إلى إحدى الغرف . كان يتوسطها بمكتبه العريض ، عرفني ، قام مرحبًا .

اقتعدت مقعدًا خشبيًا أحضره الساعي ، أمسكتُ بكوب الشاي .

تصنعتُ الاهتمام لكلام الأستاذ حسونة :

العمل لدينا خفيف .

والمرتب ؟

خمسة جنيهات وريال .

ارتفع حاجباي ؛ " أسبوعيتي بالقاهرة ثلاثة جنيهات غير البقشيش .."

.

توقعَ أن أرد ، صمتي . أكمل :

ستبدأ بشكل مؤقت ، وعندما تأتينا درجات سنثبتك على واحدة .

نطقتُ :

متى أستلم الشغل ؟

من أول الشهر .

أقلّبُ عينيّ في الزخارف الملونة بسقف الغرفة وقد تساقط صبغها ، وأنا أرتشف الشاي. تشاغل الأستاذ " حسونة " مع الموظفات الغارقات في مطالعة بعض المجلات . ضحكه ، ضحكاتهنّ، الأصوات الناعمة . تبادلتُ النظر مع إحداهن .

* * * *

في المحل ، أنصت لأغنية من المذياع :

كورال الرجال : " دي ماهية على قد الحال "

كورال البنات : " واحنا كمان لينا ماهية "

– " سنة والثانية هييجي عيال "

–" مع علاوة وترقية "

* * * *

مركز " إطسا "كان تعييني ، أركب القطار ، من المحطة الرئيسة ، بجوار السواقي التي لاتكف عن النعيق ، الشريط الحديدي اليتيم الذي يمتد مبتعدًا عن باقي الخطوط .

السير ساعات في المزارع ، مع المهندس الزراعي . كان الناس يظنون أنني رئيسه ، لأني مرتدٍ بدلة ، وهو بالقميص والبنطلون والبلوفر الصوف .

* * * *

الأشهر ، المرتب المتتابع ، كنت بلا توقيع ، أعمل يومين أو ثلاثة ، والباقي في المحل .

أقيس بالشريط الصفيح الطويل ، أنا وزملائي . التشابه في الأيام .

قال لي الأستاذ " حسونة " :

– مبروك عليك التثبيت ، الآن لو أكملت الدراسة سيتحسّن وضعك الوظيفي .

– بصراحة ، زهقت من الريف و الطين . أريد النقل للبندر .

– أنت بلا توقيع ، وإذا جئتَ ستكون بالحضور والانصراف .

– ليست مشكلة .

" لا يوجد موظف يركن على مكتبه طوال اليوم "

– سأحاول .. ، وقلْ للأسطى دسوقي ينهي بنطلونات الأولاد .

* * * *

عمري الثانية والثلاثون ، أبناء دسوقي يلعبون أمام المحل في العصرية . الموظفة بنعومة صوتها تؤرقني ليلاً ، لم يترك أبي سوى دكان النجارة ، وشكوى هاشم من السوق الراكد معه ، ووراءه عياله . والبيت لا مكان لي فيه . وأساعد أمي وأختي ..

" الزواج : شقة بالإيجار ومهر ..."

قلتُ لأمي وهي تعبث في شعري :

أمامكِ عروسة لي .

كبرتَ يا وهبه ، والبياض ينمّل بشعرك .

المصاريف والمهر ..و ...

ابدأ يا بني ... والفرج على ربنا ..

بعد تسع سنوات في القاهرة ، أعود مفلسًا ..

ما رأيك في أخت امرأة أخيك ؟

تخايلت أمامي وهي تغدو لأختها ، " سمراء ومسمسة ، لكن أميّة ، وكلامها كثير "

لا .. لا ..تنفعني ، أريدها متعلمة . أنا أذاكر .

المرأة وراء زوجها دائمًا .

وأنتم ، من أين سنتفقون ؟

أختكَ سنرفع قضية ضد زوجها ، ما دام لا يستحي وينفق على ابنه . وأنا أمري سهل .

* * * *

قلت لسكرتير معهد شفيق :

منهج الأول إعدادي سهل ، أريد أن آخذ الثاني الإعدادي معه ؟

ممكن .

والإجراءات ؟

طلب للناظر ... والمصاريف بالضعف .

تراءتْ أمامي الشهادة الثانوية قريبة ، على بعد خطوات أو سنوات .

* * * *

أريد الزواج ... يا عم دسوقي .

أخـيرًا .

قالها بنفخة مصطنعة .

ابحثْ لي عن عروسة .

هل تظن أنني وكيل أعمال دائرة سعادتك ؟ وظيفة ... ودكان ..و ...

أنتَ تعرف أنني " عبيط " في هذه المسائل . وأنتَ أستاذ ..

سابقًا ، وتبنا لله ... أمك عندك ، تبحث لك .

كلهن أميّات .. أريدها ...

أديبة مبدعة ... ومثقفة ... الكتب أكلتْ مخك .

* * * *

القلم يتقطع بيدي ، مسرحية طويلة ، المكان : رواق الصعايدة الذي كان يحيا فيه دسوقي بالقاهرة ، الشخوص : دسوقي البطل ، كتلة من الكوميديا تتحرك ، ويعاونه مجدي . انفراجة الستار عن حجرة فسيحة ، تتناثر فيها المراتب القطنية ، والألحفة بلا نظام ،

" عتريس " الذي كان يتزعم أبناء بلده سوهاج ، ويحل مشكلاتهم ، " دسوقي " يلوي لسانه مقلدًا الجيم وهي تخرج دالاً .

القلم يتقطع ، ..... أسعد ، الشهرة تتخايل أمامي . " مؤلف المسرح الكوميدي " .

النوم : تقافز أبطال المسرحية ،و " الموظفة بنعومة صوتها " . حين استيقظتُ كانتْ الأمطار قد نفذتْ من عروق سقف الغرفة . وجدت بللاً في ملابسي .

* * * *

قالتْ أمي وهي تضع طبق الفول على الطبلية ، وكنتُ أداعبُ ابن أختي :

عرفتُ لكَ مُدرّسَة ، أبلة طيبة .

تصنعتُ الغباء :

لماذا ؟

ربنا يجعلها من نصيبك . أميرة وتريد العيش .

دقات قلبي للجديد ....

بنتْ مَنْ ؟

أهلها في حارة " السبع دروب " .

إنهم قريبون منا .

تدخلتْ أختي : – قابلتها مع أمها في السوق ، حلوة ....

هذه عن طريق زوج بنت خالتك ، الأستاذ عبد المنعم ...

صمتي ، خوف من ألا يحدث هذا ..

* * * *

طرقتُ عليه شقته في المساكن الشعبية الجديدة في حي " الشيخ حسن " ، بحلق هنيهة ، ثم عبارات الترحيب . بانتْ زوجته " كريمة " بنت خالتي في الطرقة . طعم الاستقرار والسكينة . لمحتُ أولادًا ، كان

يدرسّهم في غرفة الصالون . وقفوا لدخولي . أشار لهم ، فتسحبوا للصالة . قدمتْ "كريمة " بصينية الشاي . عبق القربى . حبتْ ابنته الصغيرة دالفة بعدما دفعت الباب ، ذراعها في طول كفي . قالت " كريمة " :

البنت هذه زميلة " عبد المنعم " في المدرسة .

قال زوجها :

أدب وتفوق ، من وهي في مدرسة " المعلمات " .

أنا ظروفي المادية الآن ...

ردّتْ "كريمة " بتلقائيتها:

مرتبك على مرتبها ، وأهلها فقراء ، همهم ستر ابنتهم .

سألته عن طريقة رؤيتها ... ، ابتسما ، سرحتُ في شكل الابتسامة .

* * * *

من موقف سيارات مركز " سنورس " ، اقتعدتُ جانبَ السائق ، سيارة من بقايا سيارات شركة "كفوري " التي تنقل بالنفر . رائحة " الجاز " بأنفي . قلتُ للسائق :

مدرسة " عبد السلام عارف " الابتدائية .

هذه في " الكعابي " أول الخط .

قريبة أم داخل البلد ؟

انزلْ واسألْ عن بيت " عزمي بك " ، أجرته الحكومة من عياله .

الطريق الترابي ، الغبار الذي لوّن البنطلون الذي عكفتُ على كيّه .

ابتسامات النسوة الممتطيات الحمير ، لملابسي المتأنقة .

المدرسة : الحديقة التي تحولتْ إلى حوش للأولاد ، وقد تحطمت الفسقية الكبيرة التي تتوسطه .

أشار لي " عبد المنعم " ، وجدتُ نفسي بين المدرسين ، كانتْ حجته لهم أنني جئتُ لأقيس بعض الأراضي هنا . الشاي والكوكاكولا الساخنة . غمز لي نحوها ، سمراء ، قصيرة ، الانجذاب .. ، تتكلم بصفاء . خجلها وأنا أتفحصها .

قال عبد المنعم :

هل لابد أن تبحلق فيها ؟

.....؟

أخذتْ بالها ، ودار الهمس بين المدرسات من بعيد .

عرقي تحت إبطي .

المهم... ما رأيك ؟

* * * *

في شقته ، قلت : – هل فاتحتها ..؟

نعم .

تلهفي :

والنتيجة ...

همّتكَ ، اذهبْ للبيت ..

كيف أقابل أباها ؟

عقدتَ العزم ...؟

صمتي " التردد داخلي .."

كريمة : – أبوها لديه محل تصليح " وابورات " في شارع الروبي ...
صياح ابنتهما الصغيرة ، ضحكاتنا ، دفء ....

* * * *

تطلع نحونا . انتفض من مكانه وراء وابور مفكك :
أهلاً .. أهلاً .. بالأستاذ عبد المنعم .
جلوسنا أمام المحل ، الكلام المعتاد : الصحة والأحوال والعيال .
أرتشف ببطء الشاي .
صمتهما . " ماذا ..." ، يعرفني عبد المنعم . كلمات الترحيب .
نريد أن نزورك في البيت ؟
الترحيب المبالغ فيه ، نظراته الباسمة إليّ .

* * * *

غرفة الجلوس ، الكنبات الأربع ، صينية الفاكهة ، الضحكات المتصنعة ، انتشائي .
قال عبد المنعم :
طالبين القرب من الآنسة منيرة. مشيرًا لي:
– الأستاذ وهبه ... موظف بمصلحة المساحة في " إطسا " ..
مقاطعتي بجرأة :
سأنتقل للفيوم الشهر القادم .
إردافه :
–.... ويعمل ترزيًا مع الأسطى / دسوقي ، في شارع الرمل ..محل " بنطلون الشباب "

تصنع المعرفة والدها ، كان يلبس جلبابًا جديدًا :

نعم .. نعم ..

عمومًا فكّر ... ، وخذ رأيها ..

* * * *

في الطريق ، قلتُ :

أيوافق ..؟

ولماذا لا ؟

ظروفي المادية ...

هم ناس على قدر حالهم ، والبنت تساعدهم براتبها .

* * * *

المعهد والحضور في صفي الأول والثاني الإعداديين . السهر والمذاكرة في غرفة السطح . حلمي بـ" منيرة " ، قمحيتها ، قصرها ، عودها الممتليء . أهو الحب ؟

" سأجاهد من أجلها .." كلام الأفلام والقصص. أيكون بنفس الطعم عندما قرأته وشاهدته ؟

أبحلق في الكتاب ، .... هل صارتا قريبتين : الشهادة والمرأة ؟

* * * *

الخطوبة : أمي وأختاي بأبنائهما . زوجة " هاشم " المتزينة ، تجمعنا الأول بعد أبي . قال " فتحي " زوج أختي " نجية " الصغيرة ، وهو يمتص الشربات كعادته المقززة في شرب

" المعسل ":

والله زمان ما فرحنا يا وهبه .

تمتماتي بالشكر ، بدمائي فيوجنتيّ .

أختي " نجية " وهي تفرد جدائلها ، " تزوجت قبل الثانية ، لبياضها وعياقتها " :

والله أنتَ سيد العرسان في البدلة " الإسموكن ".

ابتسمتُ : – هذه من صوف " المحلة " ، الإسموكن بثمن الشبكة وزيادة .

اضطرابي وأنا ألبّس الأساور ، جرأتها وهي تدخل الدبلة بخنصري . سيلان الشربات على سترتي من الكوب وأنا أسقيها . وضعته على شفتي بثبات .. وهي تتحدث .. بنعومة .

* * * *

انتقالي إلى الفيوم ، مركز المساحة ، بحي " الجون " ، خلف " دار الكتب " ، التوقيع الصباحي ، مكتب خشبي خاص بي ، ملفات وأوراق ، صورة الموظف التي حفظتها من السينما .

الوظيفة ثم الدكان إلى العصر ثم المعهد إلى المغرب ، ثم الدكان إلى العاشرة ليلاً ، ثم غرفتي فوق السطح . "كفاح " .. " هل أصل ...؟ "

* * * *

قال دسوقي :

ما هي أخبار الجهاز ؟

لا أخفي عليك ...المسألة ضيقة .

والمرتب ، والدكان و ...

أهلي يأخذون مني كثيرًا .. ودفعت ربع ثمن غرفة النوم للنجار .

الاتفاق ...ماذا ؟

غرفة النوم عليّ ، والمطبخ على العروسة ..

أكملتُ : والصالون ، عليّ أيضًا .. لكن ربك يدبرها ..

ادخلْ في جمعية .. ستضبط أمورك .

* * * *

الشهور ، الامتحانات ، هذالي من المذاكرة .

النتيجة : " ناجح ومنقول للصف الثالث الإعدادي " .

الفرحة .. ، أعطيت إخوان " منيرة " نقودًا في زيارتي المعتادة كل أسبوع . كانت فرحة مثلي ، سألتني حماتي عن أخبار " العفش " . ضيقي .

قلتُ :

الجمعية قريبة .. أريد " الزفاف " قبل بدء الدراسة .

إن شاء الله .

ماذا فعلتم في المطبخ ؟

خطيبتي واجمة :

في انتظار الجمعية التي مع زميلاتي ..

راحة ، " الحال من بعضه " .

أصداء أغنية الموظفين ، " إحنا ماهية ، وأنتم ماهية .."

وفق كلام أمي " الزواج رزقه من الله .."

* * * *

الأثاث ، الشقة بحي " العريان " ، غرفتان وصالة بجنيهين . البيت قديم ، ولكن قريب من المصلحة .

دفء الأسرة يخايلني . " امرأة ومذياع وكتاب ومذاكرة .."

– " أرى أن يكون الفرح على الضيّق ، من أجل المصاريف ، سيارة مزينة تركبها أنت وهي ، وعدة زغاريد ، والشربات ، ..... الفلوس هذه أنتما أولى بها .. "

قال دسوقي ، ونحن نتغذى عند حماي الذي دعاه معي .

همستُ له :

– كلامك صحيح .

ترددتْ حماتي ، قال " أبو إبراهيم " حماي ، بعدما نظرتُ له :

وأنا معك .

(٥)

تخرج منيرة في السابعة إلا ربع صباحًا ، في طريقها إلى موقف السيارات ثم المدرسة ، أستيقظ بعدها ، أسرع إلى المصلحة ، للتوقيع قبل رفع الدفتر ،الأستاذ " عبد العظيم " روتيني أكثر من مخترع دفاتر التوقيع . أعود ثانية ،إلى البيت مع كيس الفلافل ، أتمدد وأقرأ الجريدة مع الشاي . ثم الذهاب إلى العمل ، أغرق في الملفات ، حتى الثانية عشرة ، أتحرك للحاق بطابور الجمعية الممتد . رحمتني أمي وأختي من هذا . الأرجل تتيبسُ في وقفتها ؟ . يفقد الشعب ثلث وقته في الطوابير .

* * * *

الغذاء : حديثي عن الأسعار ، وحديثها عن المدرسة والتلاميذ . تسألني عمافعلته مع النجار ،(حجرة السفرة).

يحتاج إلى القسط الثاني .

اقتربنا أن نقبض الجمعية .

هل لابد منها ؟

كل البيوت فيها .

رضوخي ، وأنا أقلّب بصري في الشقة التي لن تتسع إلا لنا .

* * * *

أرجلك قلّتْ عنّا بعد الزواج ؟

قال دسوقي باسمًا ، قلتُ :

المعهد ، و" المدام " لا تريدني أن أتأخر .

حسنة المحل ، لا بأس بها ، النواة تسند الزير .

بصراحة ، دخلنا يمشّي الحال .

هذا من فضل الله .

(٦)

طرقات ليلية . أفتح ، عرفتهم ، " زوار الفجر " . هلعي ، صرخات " منيرة " .

السيارة الكابية ، السباب .

* * * *

النور المسلّط على عينيّ ، خدي المتورم من صفعة . الاسم ، العمل ، العنوان ، ...

أنت صديق لدسوقي ؟

نعم .. نعم ..

.. معلوماتك عن نشاطه السياسي ..

ليس له ...

نخذة في جنبي ..

الحقيقة ..

علاقتي معه عمل فقط .

دسوقي متورط في قلب النظام ..

حاجباي مرفوعان .. همهمتي ..

أين كان يصلي ؟

في الجامع المجاور للمحل .. الجمعية الشرعية ..

و أصحابه ..؟

الزبائن ، وأصحاب المحلات .

له علاقة بالإخوان .. ؟

* * * *

القضبان ، الزنزانة .

سألت الضابط ، كان أشقر الشعر :

ما تهمتي ؟

هذه تحرياتنا الدائرة المحيطة بصاحبك .

هل قال عني شيئًا ؟

أبدًا ..

ولكن .. أنا طول عمري بعيد عن السياسة ..

نعلم ..

* * * *

خروجي ، ذهابي إلى " منيرة " عند أهلها . القلق ، تطمينهم ، خوف منيرة ..

أنا حامل ..

ابتسامة منتزعة .

ابتعدْ عنه ..

لم يخرج بعد .

حتى لو ..

أمـي ، أخـي وغمغمتـه ، أختـاي ، تجمعـوا لـدي .. " ابتعـدْ عنـه .." وجومي .

* * * *

أين ابني ؟ أنت خرجتَ ..وهو لم ..

والد دسوقي ، من على الباب .

لا أعلم ..

كيف ؟

اذهبْ لهم .

لمن ؟

.....

أحسستُ بأنفاسها خلفي ، التفتُ ، عيناها ...

* * * *

المحـل المغلـق ، في شـارع الرمـل ، " أولاده الثلاثـة .. مـن لهـم ..؟ " ، أتحاشى النظر .

أخشى أن أذهب لامرأته . قالتْ منيرة ، وأنا أهمس لها عنهم :

البيت سيكون مراقبًا .. أعطِ أباه في دكانه " قرشين " ، وهو يوصلهما.

" كلانا يتصنع الشهامة " انزواؤها بجانبي ..، تكور بطنها ، الأنين ..

* * * *

دسوقي : إطراقته صباحية بين دفتي مصحف الأوقاف الذي أخذه من الأسـطى حلمـي ، تسـلله إلى الجـامع قبـل الصـلوات ، " كيـف يقلـب ..... بهذا ؟ " .

مقولته : " فيك خير كثير يا وهبه .."

أقول متعجبًا : "كأنك تريد أن تقول " لكن " بعدها .."

يحني رأسه : " لكن .. تثق بالحياة أكثر من اللازم .."

كيف ؟

إننا أنفاس ودقائق تمضي ، والموت حقيقة ، فأنا أعمل للحقيقة ، لأن الدنيا تأتيني برزقها ، ...

ابتسمَ مع إردافه : – بعرقي فيها .. أيضًا .

كانتْ ابتسامته .... شديدة الصفاء .

* * * *

امتحان الإعدادية ، النتيجة : سبعون بالمئة .

..... بلا طعم .

قالت منيرة : " سيتحسن مرتبك ، ....لو عدّلْتَ درجتك "

* * * *

صراخها الليلي ، هرولتي لأمها ، ثم المولدة ...

الماء الساخن ، تأوهاتها ، " أيضًا الولادة والوجود حقيقة ...."

* * * *

" السبوع " ، الزغاريد ، أمي ترمي الحبوب في الشقة .

" ربنا ينجيكم من شر الحسود .."

مبارك عليك يا أبا عاصم .

* * * *

شيخوخته والانكسار ... ، قال أبو دسوقي :

فيك الخير ..

أقبل أبناء دسوقي مع زوجته ، طرفها لأسفل ، ناولتهم أكياس السبوع ، تقافزوا ، قالتْ:

لو كان أبوهم هنا لجئناكم .

تمتمتي بالشكر ..

كانتْ ابتسامتها شديدة الصفاء .

* * * *

في المصلحة ، سألني " عبد العظيم " :

ما أخبار صاحبك الذي في..... " المصيف " ؟

ضيقي ..، خوفي ، العملاء كثيرون .

مجرد علاقة عمل ..

" يوسف " أفندي :

الناس تحكي أهوال ، نفخ وضرب واعتداء ،.. هل هذا كله في الميثاق ؟

عبد العظيم : – يقولون أنهم أعداء الثورة .

" بكر " أفندي بلهجته الصعيدية :

ومن هم ناصروها ؟

يوسف : – الموظفون والبورجوازية الصغيرة .

صمتي ، " منيرة وعاصم .....أمامي ."

* * * *

تطلعتُ إلى السلاسل التي توزعها علينا وزارة الإرشاد القومي ، في أرفف " الشفنيرة " ، كتب عن عدم الانحياز وحق المواطن وأفريقيا المتحررة ..

ساعات القراءة ... أيضًا بلاطعم .

(٧)

قال عبد العظيم وأنا أوقّع :

نفسك تذهب للقاهرة ؟

لماذا ؟

فيه رحلة تابعة للاتحاد الاشتراكي .

أين ...؟

هناك في مقر الاتحاد ..

سكوتي . قرأ التردد على وجهي :

أنصحك أن تذهب ، لتبعد الشبهة عن نفسك .

* * * *

في المكتب : " بكر " يميل على " يوسف " :

الرحلة الجمعة القادمة .. هل ستأتي ؟

– احتمال ..

تشاغلي بالعمل .. فكري .. وجدت نفسي أقول :

أنا مستعد لأن أروح معك ..

ضحكته الصعيدية ...،

أول مرة تعملها !

..... لم أجدْ شيئًا أقوله .

لابد أن تخرج بطاقة العضوية في الاتحاد .

* * * *

ذهابي مع بكر في المساء ، إلى مقر الاتحاد ..... ، خلف مديرية الأمن ، الشارع المظلل بالشجر ، أوراق الفل المتناثرة على الأرض .

الحديقة الواسعة ، السلالم الرخامية ، المكاتب المتناثرة ف الطرقة .

الموظف المتجمد الملامح ، يداه الآلية وهي تثبتُ الصورة في البطاقة .

الغرف الخاوية ، اللافتات عليها : " المكتب السياسي " ، " أمانة المرأة " ، " أمانة الشباب " .....ملازم من الميثاق متناثرة على الأرض .

* * * *

التجمع عند ميدان " السواقي " ، الموظفون المتأنقون ، قال بكر :

سيعطوننا جنيهًا للغذاء .

ماذا سنفعل هناك ؟

سنصفّق ونكرر الهتاف ..

حافلة طويلة ، المقاعد الوثيرة ، تمددت ، غرق بكر في سندويشات الفول ..

تفضلْ من يد أم العيال ..

كانت منيرة نائمة ؛ الولد أسهرها الليل .....

* * * *

مبنى الاتحاد الاشتراكي على كورنيش النيل ، طوابير الموظفين في انتظار دورها للدخول للقاعة ، الجرائد المنبسطة ، النظارات و البدلات الضيقة على الأجساد المتسامنة بفعل الزواج والنشويات .

القاعة الكبرى ، المقاعد الخضراء ، المائدة المزدانة بالورود على المسرح .

الأمين العام للاتحاد ، الأمناء المساعدون ، الشعور الملتمعة ، النظارات الأنيقة .

التقديم ، الخطب ، الهتافات ، همس " بكر " :

ارفعْ صوتك ، قد يكون أحدهم ممن .....

أهتف بقوة ، ألوّح بمنديلي ، المتزعم للهتاف يطالع الورقة ، يردد في سره المكتوب ، ينتظر عند كلمات بعينها من المقَدِّم للحفل ، لينطلق بالشعار و الأشعار .

* * * *

تجمعنا بجوار الحافلة ، توزيع الجنيهات علينا .

الذي لديه مصلحة في القاهرة ، يقضيها والتجمع في السابعة مساءً .

* * * *

القاهرة " حبوبتي " ، وسط البلد ، السيارات المتكاثرة ، البنايات المُسَوّدة بالسناج .

شارع فؤاد ، الأتيليه ، الأسطى حلمي ..، تحولت الشقة لصالون سيدات ، الجمال المصنوع ، الرائحة الكاتمة ...

أتسمع وقع خطواتي على الأسفلت . صفايات المطر منسدة بالمخلفات ..

* * * *

غير معقول ، ابن خالتي وهبه ..

غمغمتي ، اختلطتْ مع كلماته المتداخلة ...

كيف حال البلد ، والولد والمدام ..؟

بخير ، الحمد لله .

وخالتي و وهاشم و ...و ... أخباركم أول بأول عندي .

أين تعمل الآن ؟

موظف في كلية الشرطة .

جميل ، سمعت أنك تزوجت ..

شفتُ موظفة على قدر الحال ، وأخذت شقة في المساكن ...

ناولني كوب الشاي الذي أعده على موقد " السبرتو " :

ولكن كيف عرفت مكان الدكان ؟

من دسوقي .. قبل أن ..

تنهد ، الحزن بعينيه ..

ربنا يفك حبسه ، ونِعمَ الأخلاق ..

هل كان يأتيك ؟

كل سفرة له هنا ، لابد أن يمرّ عليّ ..

الدكان قديم ، في آخر حارة منحدرة بالحلمية .. قلتُ :

موقع جيد للدكان ..

سجلتها باسم ابني .. من أجل الوظيفة .

ما توقعتُ أن أجدك فاتحًا اليوم ..؟

هذا جاكت رئيسنا في الشغل ، محتاج توسعة ..

" يظهر أنه يعمل فقط في التوسعة والتضييق ..، لا طاولة قص لديه .."

لم تقل لي : مَنْ يراعي عيال دسوقي ؟

أبوه .. ، وكان قد جاء لي وطلب أن أفتح دكانه ، ولكنني مشغول في الوظيفة ، أظن أنه اتفق مع ولد ترزي .

هل صحيح أنه كان مع .....؟

و أشار بيده " يخشى الآذان التي بالحائط .."

لم أرَ عليه شيئًا ..

* * * *

كلام الموظفين عمّا رأوه في القاهرة : الشوارع والبنايات والنساء .....

أين ذهبتَ ؟

قال " بكر " .

لابن خالتي ..

تصورْ أنني لا أستطيع المشي في " مصر " ..

ابتسمتُ ، أردف بصعيديته العالية الصوت :

خرجت من الاتحاد ، ورحتُ أمشي متخيلاً أنني سألفُ " مصر " ..

هذه بلد مالها آخر ...

قال من وراءنا ، يظهر أنه يعرفه :

لأنك صعيدي ، أمامك خمسون سنة حتى تفهمها ..يا عم " بكر "
غضب " بكر " ، احمرار وجنتيه ، هدّأته :
الكلام لا يلتصق . .... أكمل لي ..
يهدّيء نفسه :
أخذت ألف ثلاث ساعات ، اكتشفتُ أني لا زلت في ميدان التحرير ، جانب الاتحاد، تمزقتْ الجزمة ..

(٨)

الناس المتجمعون حول الإذاعات ، البيان العسكري كل ساعة ..
سننهي على اليهود ..
ساعات وسنحرر فلسطين .
الزعيم قالها ، سنريهم في البحر .

* * * *

أدرتُ المؤشر إلى إذاعة " لندن " :
" الجيش المصري عند المضايق "
" المصريون بلا غطاء جوي .."
" يقاتلون بالجلباب و " النبابيت " ..

* * * *

الإشاعات : " انزواء الرئيس في بيته " " القبض على المشير وبدران .."
" إسرائيل اقتربت من القاهرة "

* * * *

خطابه ، انتظره الناس في المقاهي ، حول التلفزيونات ...
" سأتحمل المسئولية كاملة .."
" سأتنحّى .."
" سأعود لصفوف الشعب .."
بكاء الناس الذين يسبونه من ساعات ، " الصعيدي الذي خربها ..."
خروجهم إلى الشوارع ، كنتُ معهم ، أشعر بالضياع ..، ذنب دسوقي
.
في اليوم التالي ، طافوا علينا في المصالح : سنقوم بمسيرات مليونية ..

* * * *

الهتافات المنظمة ، مكبرات الصوت ، اللافتات القماشية ، في شارع "
الجمهورية " " بحر يوسف سابقًا " ..
" لا تتنحَّ .. لا تتنحَّ .."
" أشعر بالضياع ، لو تركها ؛ لا نعرف غيره .."

* * * *

على قهوة " الشوشاني " جانب السينما : المقاعد الممتلئة بالأجساد المنهكة في المسيرة ، عمودية شمس " يونيه " ، على رؤوسنا . مسح صلعته " بكر " ، همس :
هزيمةُ ثم تعب لأقدامنا ، في هذه النار ..
يجب أن نحافظ على الزعيم .

" أحسستُ أن الكلمات خرجتْ ساخرة .."

أطرقنا لأحدهم يغني :

" قولوا لعين الشمس ما تحماشي ، أحسن جيشنا أصله راجع ماشي .."

قلت :

كان يهتف ويبكي .. في المسيرة .

* * * *

لم يعد للقلم موضع في يدي ، ولا للكتاب ..

الجريدة ، والوظيفة ، والبطيخة ، ...

قالت منيرة :

معنا جمعية هذه السنة ، ما رأيك في شراء قطعة أرض ؟

لماذا ..؟

بيت ملك ..لنا وللعيال .

نشتري تلفزيونًا ..

نريد شيئًا بفائدة .

كل الناس اشتروه ..

* * * *

تهادى الحانطور في الظلام ، حملت الكرتونة على كتفي ، تمتمات " منيرة " وهي تفتح الباب ، همساتها ، " تخشى الحسد .."

١٩٧٥ ، ١٩٧٦ ، .. ...

(١)

على دراجتي ، "مختار " أمامي ، متعلقًا بمقودها ، وعاصم خلفي ممسكًا بالمقعد ، إلى مدرستهما الابتدائية ، يقضم " مختار "بسكوته ، يتطاير فتاتُه على وجهي ، المشوار اليومي ، ذهابًا وإيابًا .

بوابة المدرسة ، ينزلان ، يسحبان حقيبتيهما ، تحيتي لهما ..، ركضهما إلى الفناء .

مررت على المطعم ، زاحمتُ للحصول على السندويشات .

* * * *

أهلاً بـ " متأخر " أفندي .

أمسكتُ القلم ، تطلعتُ للدفتر :

لماذا شطبتَ عليّ ؟

أجاب عبد العظيم وهو يبتسم :

المدير مرّ في الثامنة بالضبط .. لابد أن أحمي نفسي ..

قهقهت : – ثم ماذا ؟

ثم هكذا ...

وضع قطعة ورق لاصق أبيض ، موقع الشطب ..

ناولتُه سيجارة ، وأنا أوقّع .

* * * *

طابور الخبز ، وسيلتي للصمت مع الآخرين .

ولداي على الدراجة ، أحاديثهما عن المدرسة والمدرسين ... في عودتنا .

* * * *

الغـذاء : " منـيرة " تغـرف في المطـبخ وتنـاول " عاصـم " ، وأنا ممسـك بالصغير الذي يصاحب أمه في مدرستها .

تحلقنا حول " الطبلية " ، صياح الصغير ، على فخذي ، أطعمه مما في يدي .

تقول منيرة :

شركة بيع المصنوعات .... ، عرضت تخفيضات من أول أمس .

قلتُ منشغلاً بنصيبي في اللحمة :

لم أمر عليها من مدة ..

شفت الأستاذ جلال وصلاح ومحمود لابسين قمصانًا جديدة ..

أكملتُ مدركًا العاقبة :

طبعًا لابد أن تعرفي مصدرها .

رخيصة وحلوة ، من المحلة .. ، وقالوا لي عن التخفيض هذا .

والمطلوب ...

" نشوفه " .. ، لازمنا ملابس للعيال ..

يكون الصمت من ذهب عندئذ .

* * * *

نـوم العصرية ، ثم الاستيقاظ ، أسرع للمطبخ ، أضع " برّاد الشـاي " ، أنادي على

" منيرة " بأن تنتبه ..

الحمام ، الوضوء ، ثم الصلاة ..

أجلس مرتشفًا الشاي الموضوع على " طاولة السفرة " المركونة في جانب الصالة .

" منيرة " والأولاد حول الطبلية ، درس المذاكرة اليومي . أجول بعينيّ ، " الحمد لله أن ربنا فرجها بشقة المساكن تلك ..."

* * * *

خطواتي إلى شارع " الصباحية " ، دكان الأسطى " غبريال " ، كانتْ مغلقة ، اتجهتُ إلى محل النجارة الذي يجاوره ، أخذت المفتاح ..

ركنتُ ضلفتي الباب الخشبية ، على الحائط المتهالك . موقعي وراء طاولة القص ، قطع القماش المتبقية من أمس . نظفتُ ما حولي ، ابتسمتُ ؛ تتناثر بقايا القماش والخيوط على الأرضية متراكمة .

أقبل " غبريال " :

كيف حالك يا أبا عاصم ؟

نشكر الله .

نادى على صبي دكان النجارة ، الذي جاء وحمل برّاد الشاي ثم عاد به ممتلئًا بالماء .

قال وهو ينظر لي من تحت نظارته :

يا ليت يا وهبه ننهي بدلة الأستاذ طارق ..

أعلم مغزى طلبه ... قلتُ :

لِمَ ؟

جاءني في النهار ، ..

نهض ليضع البراد على الموقد الغازي الصغير ، صوته من وراء الفاصل الخشبي :

شباب هذه الأيام مستعجل .. دائمًا .

قلتُ :

عرسه اقترب ..

أعلم ، بعد ثلاثة أيام .. ولكن لماذا ؟

أتريده عازبًا مثلك ؟

كوب الشاي أمامي ، همس :

لا تقلبها عليّ ...

الزواج حلو ...

ننهي بدلته ، لأنه هدد ألا يأتيني بعدها .

(٢)

أدعـكُ بعيـني نعاسًـا ، خطـوات منـيرة ، وهـي تعـد ملابـس الأولاد للمدرسة ، أكوي مريلة الولد ، تثاؤبي .

قالتْ ، وهي تُلمّع حذاءها :

" كريمة " بنت خالتك ، أرسلتْ خطابًا لأهلها ...

هل الحال أعجبها في السعودية ؟

على كلامها ، إنهم يعيشون في خيام وعشش الصفيح .

وماذا يعجبها إذاً هناك ؟

هي وعيالها في مدينة قرب المدرسة .

تقول إنه بيت عربي واسع ، الحكومة هناك أعطته لهم .

همستُ ، وأنا أنهي المريلة :

" بهدلة " ..

ولكن ترجع بمبلغ حلو ..

هيا للنوم ..

على الفراش وهي تلف شعرها:

الإعارة جاءت لهاولزوجها في سنة واحدة .

* * * *

إنني صعيدي بالفعل ..

الساعة التاسعة ، لحظة دخوله .

قال يوسف ، رافعًا حاجبيه من تحتْ سُمْكِ نظارته :

ماذا يا عم الصعيدي ؟

بكر وهو يهوي على كرسيه :

ذهبت بالبنت الصغيرة إلى " الحضانة "، واليوم نسيتُ في كيسها سندويشاتي ، تذكرتُ وأنا عند باب المصلحة ، وقعّتُ ورجعتُ ..

صوته عالٍ ، اضطررتُ لكتابة عملية الجمع التافهة .. إردافه :

فوجئتُ أن الكيس موزع بين الأولاد في الحضانة ، وبنت الـ .....تضحك معهم ، وكل عيّل أمسك بسندويش ..

من بين ضحكي :

رزقهم ..

أسرعتُ بخطف السندويشات .. ، وضربتُ البنت ..

بسط ورقة الجريدة الملفوفة ، السندويشات المقضوم منها ..

يوسف :

يا بخلك ....!

و أنا كل يوم أقف في طابور المخبز الإفرنجي ، من أجل " العيش الفينو " .

قَسَمُه وهو يلقي بالبقايا ألا يقف بالمخبز .

قلتُ :

الرئيس عمومًا كان سيمنع " الفينو " ، لولا أنه رأى أحفاده يأكلونه فتراجع .

يوسف مبتسمًا:

عملاً بالمساواة بين أحفاده وأبناء الشعب ... أليس كذلك ؟

الاستفهام المعلّق في فضاء الغرفة مع دخول أحد الفلاحين ، جلبابه مكويٌ ولاسته لامعة ،

يسأل عن بيع أراضٍ ..

يوسف هامسًا :

إنه قادم من الخليج ..

* * * *

الغريب أنك تعمل معي ؟

قالها غبريال وهو يمد شفته السفلى ، لازمته وهو يخيط ..

لماذا ؟

لديك دسوقي ، صديق عمرك .

" رجفة فؤادي ، هل نسيتُهُ ؟ "

ولمه ؟

سمعتُ أنه حجز محلاً في عمارة الأوقاف الجديدة على البحر ..

حذري :

مبارك عليه .

* * * *

عودتي الليلية : وحيدًا في الحواري الترابية ، ومنها إلى شريط الأسفلت الضيق ، إلى

"كيمان فارس " ، في ضوء القمر أشباح بقايا الآثار الملقاة ، برك الماء من المطر ، وتوالد الناموس . تلوح المساكن الشعبية ، متشابهة بتشابه حياة قاطنيها ..

" دسوقي " .. لحظة خروجه من المعتقل من سنوات.. ذهبت إليه ، الصفاء والحزن بقسماته ، العناق الهادىء ، قبلاته بأكتافي ..

قلتُ :

– كفّارة .. .

عن ماذا ؟

حيرتي .. فطنته :

نعم كفارة ذنوب .

لساني منطلقًا :

هل كنتَ مع .....بالفعل ؟

تحفظ لساني عن ذكرهم .

وافرض أنني معهم .. تريدني مع المطبلين ..
لسعتني ... سأتركهم ..
أصوات النساء وهن يزعقن في أولادهن للنوم ، همسات الأزواج على الأسّرة عن المصاريف ، وأنا أرتقي السلالم المتكسرة حوافها .

* * * *

توقيعي الصباحي ، ثم ارتدادي ، الشوارع في هدأتها .. ، بعد سكون الطلاب في فصولهم.
حجتي مع نفسي شراء الفطور ، " شارع الرمل " ، البنايات الخراسانية الملونة ، تلاشي البيوت العتيقة .. صوت القرآن العالي .
وقف متهللاً ... دسوقي .
أهلاً .. أين أنتَ ؟
كنت بالقرب منك ..
نادى على نادل المقهى الجديد المجاور ، همس له .. متشجعًا قلتُ :
مبارك عليك دكان الأوقاف ..
هذا البيت صدر له قرار إزالة .
السندويشات والشاي ..، توددة :
أعرف نظام فطورك ، لم يعد لدي صبي ، " صنيعي " فقط ، أولادي في المدارس .
ربنا يكرمهم .. هل من جديد ؟
ضحكه ، مع قضماته :
– ولد وبنت .

صمتنا ، عيناي المتجولة ، قال :

لماذا لا تعمل معي ؟ سأحتاجك في الورشة الجديدة ، اتفقتُ مع ثلاثة آخرين .

توقعتُ هذا ..

أنا وغبريال نتسند على بعضنا ، أنت تحتاج الشباب ..

* * * *

تأخْرُ غبريال المعتاد . لم يترك المفتاح ، جلستُ عند النجار .

ساعة ،ثم صليت المغرب ، لاح مغتمًا :

ماذا وراءك ؟

كنتُ أغسل القمصان ..

ثم .. ؟

أنبوبة " البوتاجاز " ، أخرجتُ الوابور ، وجدته " خرابًا " ..

ثم ..؟

مزمجراً :

غسلتهم بالبارد ، و لم يُنظفوا ..

ضحكي :

نصحتك أن .....

نصب إصبعه محذرًا .. ، وضعتُ نظارتي في جرابها ، مع قهقهاتي ، قام ليسحب ضلفتي الدكان ، وهو ينفخ .

* * * *

بعد استفسارها عن رجوعي المبكر ، رويتُ السبب، علّقتْ منيرة :

يتزوج ..

يخشى أن يتورط ، ولا طلاق عندهم .

(٣)

يناير : القرارات الاقتصادية .. الخبز ، البنزين ، التموين ....

حسبة " بكر " ، مرتبه سيكفيه عشرة أيام . دموع يوسف .

فتح غبريال فمه نعاسًا وأنا أطرق باب الشقة عليه ظهرًا ؛ أهرب من " منيرة " .

دهشته :

حسبتها بهذه السرعة ..

ثم تثاؤبه :

كلام جرائد .

غرقتُ في قطعتي " فسيخ " متبقيين ، ثم " حبستهما " بشاي مغلي .

* * * *

اليوم التالي ، المظاهرات .

كنتُ صادقًا ، منذ قبل الثورة ..

* * * *

هلل " عاصم " و " مختار " حينما زغردتْ أمهما و دعتْ للرئيس .

انتهى الموظف .

(٤)

كريمة عادتْ .

استمعت إلى أختي وهي تصف ما حملته معها من السعودية .

قالتْ منيرة وهي تقلّب قطع القماش التي أرسلتها كريمة :

ما رأيك أقدّم على الإعارة ؟

رأسي اهتزتْ بالنفي .

كريمة اشترتْ قطعة أرض .

تسافرين ، وأنا أقعد في البيت وأنتِ تعملين ..؟ !

صمتتْ ، أعرف أنها لن تسكتْ .

* * * *

وهو يرتب أوراقه ، قال يوسف رادًا على عيوننا :

نويت على العراق .

قلتُ : – وعيالك ؟!

مع أمهم ، عدة سنوات ، وستنفعهم .

بكر : – ماذا ستعمل هناك ؟

أي شيء ، إنها بدون تأشيرة .

* * * *

التفاف " منيرة " بالحديث " الأولاد ، مستقبلهم ، مرتبان وشغلي لا ....."

صمتي . تدرك مدخلي .
قلتُ :
أسافر أنا ...

* * * *

طوابير الجوازات ، الفلاحين ، العمال .
بدئها مكروه . نظرتُ من مؤخرة الطابور ، لم أرَ الموظف . شعرتُ بالتلاشي ، كعمال التراحيل . همساتهم :
نقف من الفجر ..
انصرفتُ ..

* * * *

سواد الفجر ، كانوا جالسين على باب المصلحة . رائحة العرق ، والجلاليب الملتصقة .
نظراته الآلية نحوي ، يطابق الصور بالهيئة .
مناداة العسكري علينا ، خمسون قرشًا في جيبه وهو يسلمني الجواز .

* * * *

بكتْ وهي تنظر للغلاف الأخضر " منيرة " . قلّبَ " عاصم " صفحاته .
سأحجز في سفينة للأردن ، ثم .....
ستتركهم لي ..
نتعب من ...

العيّل الرابع في الطريق ..

الراحة وهي تفصّل لي أننا أفضل ....، والآخرون عادوا بالمرض و ....

وأحيانًا في توابيت .

نأكل ونشرب ... ماذا نريد بعـد ...؟

خوفها ، ارتعاشة الأنثى بجانبي .

(٥)

حرب الرئيس على الجزارين .

" جزار يشتري عمارة بمليون جنيه .."

" سأحاربهم ، سيقاطع الشعب لحومهم ، سأجعلهم يجلسون في بيوتهم"

* * * *

قال بكر وهو يدعك صلعته :

جفّتْ من قلة البروتين الحيواني .

هناك نباتي .. الفول والعدس ومشتقاتهما .

* * * *

منيرة :

مدرس معنا تعرّف على جزار في حي " الشيخ حسن " .

أسبوعان وينتهي ...

نريد أن نطبخ للعيال .

اليوم التالي ، أخبرتُ بكر ..

* * * *

فعلاً أنا صعيدي ..

وبعد ذلك ..

هل اشتريتَ من جزارك ؟

رأسي يمينًا ويسارًا ، " خشيتُ أن أدفع الغرامة ..."

أعطاني كيلوين من الدهن والعظم .. وقطع اللحم الأحمر ، وفرتها امرأتي للعيال ..

حلفتُ وأكلت الدهن .. ألا ترى عرقي مثل الزيت .

(٦)

صرخات " منيرة " ، إسراعي للمولدة .

بعدما خرجتْ ببكائها إلى دنيانا ، قالتْ المولدة :

أنتِ لا تلدين إلا في الفجر . إن شاء الله لابد أن تضبطيها على الصباح .

" تخطط للمرات القادمة .."

" أنفاس تولد .. ، وأيضًا ستموت .."

أمسكتُ بالملعقة وأسقيتُ المولودة الماء الدافيء المسكّر .. " قطعة لحم حمراء ، ستزاحمنا في كوننا .."

منيرة وهي تناغيها :

ستكبر وتكون عروسة ، وألبسها طرحة الفرح .....

* * * *

حضانة " الرضع " المحطة الأولى لي ، وللمولودة .
ثم " أحمد " أمامي على مقود الدراجة ، و " عاصم " ممسك بالمقعد خلفي ، ومختار سبقني إلى مدرسته الإعدادية .

١٩٨٧ ، ١٩٨٨ ،... ...

(١)

شقتي ضاقتْ . طاولة السفرة والعيال يتحلقونها ، انفراد مختار بغرفة الصالون ، الشاي في العصرية ، مع منيرة التي تكور جسمها مع الزمان ، في جلبابها البيتي الباهت .

تقول برشفاتها الطويلة في الشاي :

الناس تكلّم نفسها من الأسعار .

قلتُ وعيني على التلفزيون المكتوم الصوت :

زمان يقولون اربط الحزام لنتقدم ، والآن اربطه لنسدد الديون .

" أحمد " : نريد تلفزيونًا بالألوان ..

تعقّب " أمه " :

– المفروض والله يا أبا عاصم .. الناس كلها ..

صمتي وأنا أنظر لنشرة الأخبار .

* * * *

أهلاً يا عم " وهبه " ..

قالها الشاب الذي أخذ محله . يأتي عند الحضور والانصراف .

ذهب عبد العظيم ، أحب الروتين في الستينات وكفر به في السبعينات ، وتقاعد في الثمانينات .

" يوسف " بعدما تنقل بين العراق ثم السعودية ... ، عاد بنفس الجلسة ، والنظارات التي ازدادتْ سمكًا . التجاعيد المحيطة بعينيه ..

تقليبي للأوراق ، أنفاسي البطيئة من السيجارة.

الموظفون الشباب بين المكاتب . قلتُ ناظرًا إلى " بكر " :
أمس عند المدير ، كان يحاسب " عماد " على تهربه من العمل ، فقال له : " والله أنا أعمل على قدر فلوسكم " .
بكر : – زمان كنّا نلمّع الحذاء قبل الدخول للمدير .
يوسف : والله معه حق .. كم يومًا يكفيه المرتب ؟
قلتُ : " عماد " جاءنا من سنوات عندما طلبنا سعاة ، اشتغل بالإعدادية ..
أكملتُ ، ويدي تكتب بروتينية :
الآن حصل على دبلوم تجارة ..
بكر رافعًا حاجبيه :
أول مرة أعرف ..؟!
وقام بتعديل وضعه الوظيفي ..
كيف ؟
التحق بمدرسة التجارة ، نجح بالفلوس في الأول والثاني التجاري ...
وماذا فعل في الثالث ..؟ أنا ابنتي تعبتني فيه ، والآن قاعدة في البيت .
ذهب للمدرسين ، لخصوا له المناهج في صفحات ، حفظها ونجح ..
يوسف من بين الأوراق :
ماذا يعمل ..؟
كهربائي على سبّاك ..والسلام ..

* * * *

منيرة :

عاصم له ثلاثة أسابيع لم يأتِ ..

اتصل عند الجيران وطمأننا ..

سافرْ له .. أنا سأعمل له "كيك " تأخذه معك .

* * * *

القاهرة حبوبتي ثانية ، الزحام ، دخان السيارات ، الجامعة : لم أدخلها إلا مع " عاصم "

وأنا أقدّم أوراقه في الكلية .

غرفة الاستقبال في المدينة الجامعية ، الآباء المتجمعون ، قفف الزيارات .

جاءني ، شعيرات نابتة في ذقنه ، أحسستُ باختلافه ..

نصحته أن يبتعد عن أن أي تيار ..... ، أطرق ، يشبهني في جسده الصغير .

* * * *

نقاش مختار معي ، تعلم القراءة مني .

لماذا توقفتُ عن الدراسة ؟

وصلتُ للثاني الثانوي ... وأنا الآن معين بالإعدادية .

تقمصي للأبوة المكافحة ، " هل أَصْدُق ؟ " .. الأسباب في التوقف البيت والعيال والرزق .

ذكرياتي عن القاهرة ، أتصنع القدوة أمامه .

يتكلم كثيرًا ، يبحث عن شخصية أمامه . شعوري بالانزواء ، حين سألني عن السبب في عدم الغنى ...

" الحياة من خلفي .. ، غرق في اليومي ، لقد صنتعني الجزئيات ..."

تقول منيرة :

دسوقي الآن صاحب عمارتين عاليتين في حي " البارودية " .. هذا غير شقته والورشة الكبيرة التي فتحها في ..." الأوقاف " .

وجدتُ نفسي تحكي قصة قصّاص الحمير المجاور لبيتنا ، كانوا يتزاحمون عليه وهو يسبهم ويلعن الصنعة ..

لساني يردد :

ليس لي رزق في هذه الدنيا .. مهما تركض ركض الوحوش ...

قد يكون شاطرًا في قص الحمار ..؟

أبدًا .. أنا كنت شاطرًا في ...

" أمسكتُ ، فيما .... ؟ "

" تلاشت السنون من بين يدي "

* * * *

تساءل يوسف :

لماذا اشتريته ؟

شهور وسأخرج إلى المعاش ..

هل ستعمل في كشك .. ؟ بعد الوظيفة والاحترام ..

بلكنته الصعيدية :

لو كان أبي يعيش الآن لضربني بالنار ، كان يريدني أفنديًا فقط .

ضحكته الغليظة :

الكشك جانب البيت ، والنواة تسند الزير .. أنا عيبي أنني تزوجتُ وأنا كبير ، تخيلوا بناتي أكبرهن في العشرين .

" هل يقرأني " ..

تدخلتُ :

أندم الآن لأنني لم أفتح دكانًا ولا أخذتُ شهادة ..

يوسف :

صراحة ، المبلغ الذي عدت به من الغربة ، لم يتبق منه إلا ألفين أو ثلاثة ، مصاريف العيال كثيرة ، ورجعت على الوظيفة .

راحتي ، هل العمر دكاكين ومال ....؟

(٢)

دموع " منيرة " وهي تناولني ورقة ...

" السيد ولي أمر الطالب : عاصم ...

رأينا ابنكم سار في مظاهرة يوم .. ... يرجى تحذيره منعًا من ....."

* * * *

سفري ، جاء ضاحكًا ، مختلفًا عمّا كان .. ، اختلائي به . الورقة ، اصفراره .

هل حدث ؟

أرسلوا لكل الطلاب ..

لماذا ؟

من أجل انتفاضة الحجارة في فلسطين .

لا دخل لك ..

مسيرة عامة ..

لم أسرْ في مظاهرة طول عمري ضد النظام ، لم أدخل قسم شرطة ، عشتُ في أمان ، تأتي أنت وتفسد ...

ماذا ..؟ مشيتَ مع الاتحاد الاشتراكي ، مدحت الفساد ..

دسوقي خرج من المعتقل شبح رجل ..

عاش رغم أنفهم ..

لو .....

هدّأت نفسي ، كان يطاولني ، أول زهرتي .

هل تعدني أن ...؟

بكاؤه ، كانتْ دموعي قد سبقته .. ، عناقنا ، كانتْ عيناه ـ أيضًا ـ شديدة الصفاء .

* * * *

شوارع القاهرة ، أذابتني فيها سنوات ، خطواتي نحو الحلمية .

من بقايا أسنانه ، حروفه المتآكلة :

أهلاً .. أهلاً .. يا وهبه يا ابن خالتي ..

الدكان كما هو ، الدهان المقشر الأسود ، وابور السبرتو ، ماكينة ، بدون طاولة قص ، يعمل في بنطلون مستعمل .

لم تتغير يا مجدي ..!

وأنتَ أيضًا ..

الدنيا رفعتْ ناسًا ، وأنزلت ناسًا ..
لا ترفع ولا تنزّل .. كلها واحدة ..
ضحكتُ بالقهقهة .. راحتي .. " مجدي فيلسوفًا "
أين عيالك ؟
في الدنيا ، وأنا هنا على المعاش ، أصلح البنطلونات الجاهزة ..
وصحتك ؟
آكل وأنام وأدخل الحمام ..
امرأتك رضيتْ معك كل هذه السنين ؟
ماذا ستفعل لو لم ترضَ ؟

(٣)

صلاتي للجمعة المعتادة في جامع " قايتباي " ، متوالية بتوالي السنين والخطباء ، الزخارف الباهتة ، السناج العالق بالأركان ، تتهاوى البيوت القديمة من حول المسجد ، بقايا الحوائط والفراغ محلها . يشمخ المسجد وحيدًا ، ومئذنته ازدادتْ قصرًا .

تزاحم المصلين على باب الخروج ، أطالع لافتة هيئة السياحة الزرقاء ، إشادة بالأثر وتاريخه ، التحيات السريعة . هاشم يتوكأ على ابنه ، عظام أكتافه البارزة ، ابتسامته لي ، يزيح ابنه ضلفتي الدكان ، يتورم كرشه كأبيه .. النارجيلة والنفخات .. ، أحاديث العيال وابنته التي سافرتْ لـ " عمان " .

أتسلل لغرفة أختي " حفيظة " وراء الدكان ، حكاياتها عن الحارة والشارع وأختنا الصغيرة "نجية "، وهممات أمي ، تشاركها بفمها الخاوي ، " تحمد أمي ربها ألم تتزوج حفيظة" التي رضيتْ بابنتها الممرضة والولد " حسن " الذي طاولني الآن واشتغل في محل القمصان والجلابيب الذي يجاورهم " تضحك أمي ، تجاري " حفيظة " في كلامها . "

أمي : الهرم يساوي لديها عينيها اللتان كفّ نورهما "

احتضنتها وهي تبكي الظلام حولها ، حدقتاها – من بين التجاعيد – رماديتان .

خروجي ، تساقط بيوت القصاصين المتساندة ، قالتْ " حفيظة " وهي تجلس أمي أمام باب البيت :

عيالهم رفضوا قص الحمير والغنم ، والعجائز تتابعوا وراء بعضهم .

أجلستْ أمي على العتبة ، آذان العصر من ميكروفون المئذنة الصاخب . كررتْ أمي :

الله يرحم الشيخ " عبد المعطي " ، كان ضريرًا ويصعد سلالم المئذنة خمس مرات في اليوم ،وصوته يأخذنا من الدنيا ومن ناسها ..

تشابه " حفيظة " أمي في جلستها ، وفي شيبها الذي بدأ ينمّل بوجهها .

ثبات وجهها للأمام ، " فيمَ تنظر ...؟ "

قالتْ حفيظة وهي تطالعني في وقفتي أمامهما :

سآخذها بعد " شوية " حتى " أحميها " .

أمي تمصُّ حبة طماطم ، وهي تناغي نفسها .

* * * *

شارع الصباحية ، دكان " غبريال " المغلق ، هل لا يزال يتأخر ؟

طرقاتي على باب شقته ، بدون .....

عدتُ ، سألتُ دكان النجارة ... قالوا : لقد .....

(٤)

طرقات ابن هاشم ، مفاجئة ..... ليلاً ، نطق وجهه ...

كانوا يبكون ، كلهم ، أحفادها ... ، استمسكوا نعشها الخفيف .. قال أحدهم :

ألم نشعر بها إلا الآن .. ؟!

* * * *

ذهابي في العصرية ، حفيظة وحيدة على العتبة ، جالستها ، صمتها وهي الكثيرة الكلام ، تنظر أمامها في اللاشيء .

١٩٩٥، .. ١٩٩ ،... ...

(١)

صراخي المبكر على الولد " أحمد " وأخته " زينب " ، تأففهما ، صوتي في الولية ، الممددة بجواري ، تهدل جسدها ...

يا رجل نام ... ماذا وراءك ؟

الفراغ الهادىء .. ، أغدو إلى المخبز والفوال ..، أسير مع ابنتي إلى مدرستها ، هي أمها في شبابها ..

* * * *

تجمعنا الأسبوعي ، زوجة " عاصم " و حفيده ، أتسمع لحكاياتها عن " النونو " الشقي ، أقهقه بفمي الخاوي .

ألقي بحفيدي لأعلى ، تتهدج أنفاسي .

* * * *

قعدتي المسائية أمام كشك " بكر " .

حكاياته عن بناته المتزوجات ، وحماته التي جاءتْ تعيش معه ..

يقول :

ما رأيك أن تتزوجها ..؟

ويقول :

– الولية حماتي أرادتْ أن تقتل البعوض الذي رأته في عشة الفراخ ، فأشعلتْ في غصن أخضر الدخان ، ونزلتْ تشاهد المسلسل ..

أسرعنا على صراخ السكان بأن السطح يحترق ..

(٢)

مصطحبًا ابني " مختار "إلى دسوقي .. ، الشيخوخة ، يقف يعدّ لشغل الغد ..

الترحيب ، قعدتي ، ناولته قماشًا ..

ماذا ..؟ هذا لك .

لمختار .. عرسه قريب .

مبارك عليك .. أنت تفصلها ؟

ولماذا جئتك ؟

غرقنا في أخبار العيال ، والأحياء والأموات .

(٣)

كان لابد أن أمسك القلم ، لعلني أصنع شيئًا ، من الجزئيات ..

وحيدًا في الصالة ليلاً ، مستندًا على مائدة السفرة ، يتلعثم القلم ، سينطق ، حتى لو تفذلك أحدهم عليّ ..

" أين هو هذا المتفذلك الذي يقرأ لعجوز في السبعين ؟ "

سأقرأ أنا ..

سأكتب ..